مَلامِحُ الهُوِيَّةِ المِصْرِيَّةِ فِي شِعْرِ شَوقِي

أ.م.د/ محمد محمود أبوعلي
جامعة دمنهور – كلية الآداب

المؤتمر العلمي الأول لقسم اللغة العربية ،
تحت عنوان (اللغة العربية : الأزمة – التحديات – الهوية)
كلية الآداب ، الوادي الجديد ، جامعة أسيوط
26- 27إبريل 2015م

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن مَلامِحُ الهُوِيَّة المِصْرِيَّة فِي شِعْرِ شَوقِي ، ويُعْنَى بِرصْد تجلياتها اللُّغَوِيَّة ، والحَضَارِيَّة ، والفِكْرِيَّة في شِعْرِهِ .

ولا يقتصر البحث على النظر إلى مصطلح (الهُوِيَّة) بِشَكْلٍ عام ، بل يَتَطَرَّقُ إلى مُصْطَلَح (الهُوِيَّة المِصْرِيَّة) تمثيلاً لِمَعْنَى الهُوِيَّة ، وتَرَسُّمًا لِمَدْلُولاتِهَا في الوَعْي المِصْرِيّ بما فِيهِ مِنْ زَخَمٍ وثَرَاءٍ ، اكتسَبَهُ مِنْ خُصوصِيَّة المكان ، المتمثِّلة في الحدود الثَّابتة لِمِصْر ، عَلَى مرّ التاريخ ، في إطارٍ جُغْرَافِيّ حَافَظَ على تركيبتها الإنسانيَّة أكثر من أيّ بلدٍ آخر ، كما اكتسبه من البُعدِ التاريخيّ الضَّارب في جُذُور الحضارة الإنسانيَّة .

والواقع أن مصطلح (الهُوِيَّة) يشمل عِدَّة قضايا تتجاذبها علوم إنسانيَّة متنوعة ؛ فهو يَتَرَدَّدُ بين الفلسفة والاجتماع والسياسة والأدب ، والبحث فيه أمرٌ عسير .

إنَّ الهُوِيَّة – إِذَنْ – تَعْبِيرٌ عَن الذاتيَّة ، ومحاولة لتأكيدها ؛ فهي مجموعة الصفات ، أو السِّمَات الثقافيَّة العامَّة ، التي تُعْطِي الفرد أو الجماعة وحدتها ، وتميُّزها .

ويُقْصَد بالهُوِيَّة المِصْرِيَّة ، أو الثقافة الخاصَّة بالشَّعْب المِصْرِيّ ، الخصائص الانتمائيَّة المُشْتَرَكة بَين المِصْرِيينَ , تلك الخصائص التي تُمَيِّزُ مِصْرَ

من غيرها مِنَ الأُمَمِ الأُخْرَى , وتجعل لها خُصُوصِيَّة معرفيَّة , ثقافيَّة , وُجُودِيَّة .

ولقد كان أحمد شوقي لِسَان مِصْر المُعَبِّر عنها ؛ إذ استوعب شِعْرُهُ الحضارات المُتَعَدِّدَة التي مَرَّ بها تاريخ مِصْر ، ونجح في إبراز معالم الهُوِيَّة المِصْرِيَّة وخصائصها في كُلِّ عصورها ، بوصفه شاعرًا قوميًّا على وعيٍ فائقٍ بالمؤثِّراتِ المُخْتَلِفَة التي أسهمت في تكوين الهُوِيَّة المِصْرِيَّة .

وقد تضمن البحثُ تمهيدًا ومَبْحَثَينِ وخَاتِمَة ، اشتمل التَّمهيدُ على مفهوم الهُوِيَّة ، وخُصوصيَّة شوقي في تناوله الشِّعريِّ للهُوِيَّة المِصْرِيَّة ، وناقشَ المَبْحَثُ الأَوَّل (رَوَافِدُ الهُوِيَّة ؛ جُذُورٌ ومُؤَثِّرات) .

أمَّا المَبْحَث الثَّانِي فقد عرَضَ (أنماط الهُوِيَّة المِصْرِيَّة عند شوقي) ، وانقسم إلى : هُوِيَّة إِسْلامِيَّة ، هُوِيَّة سِيَاسِيَّة ، هُوِيَّة فِرْعُونِيَّة ، هُوِيَّة مَسِيحِيَّة ، هُوِيَّة قَومِيَّة ، ثُمَّ اتَّسَعَتْ فكرة الهُوِيَّة والتَّعبير عنها في شعر شوقي إلى رُؤية إِنْسَانِيَّة عَالَمِيَّة .

وقد اتَّبَعتُ المَنْهَجَ الوَصْفِيّ التَّحْلِيلِيَّ لِمُناسبتِهِ القضيَّة موضوع الدِّراسة ؛ فانتهجتُ الإجراءات المنهجيَّة في رصدِ الظَّواهِرِ ثُمَّ تَحليلِهَا ، ثُمَّ تِبيان ارتباطاتها بقضيَّة الهُويَّة عَلَى وَفْقِ التَّصنيفِ الذي توزَّع مَنهجيًّا في مَبْحَثَي الدِّراسة .

This research aims at uncovering the features of the Egyptian identity in Shaqki's poetry. It also attempts to locate its linguistic, cultural and intellectual manifestations in his poetry. This research also extends to embrace the term " The Egyptian Identity" in its momentum and richness.

In fact, the term " identity" includes several issues that overlap with many other human sciences. That is, it is a common subject in philosophy, sociology, politics and literature, which makes it a difficult domain to investigate. Identity is an expression of individual liberty and an attempt to affirm the self, since it is a set of characteristics or general cultural features that give the sense of unity and distinctiveness to the individual and the group.

By Egyptian identity, I mean the common issues among the Egyptians, as well as these differentiating issues. These issues make Egypt have its unique intellectual, epistemological and ontological particularity.

Ahmed Shawki was Egypt's expressive tongue. His poetry embraced the several civilizations which Egypt underwent. It succeeded in foregrounding the features and characteristics of the Egyptian identity in all ages. He was the representative as a national poet who, through his poetry, surpassed the limits of place. His depicting, glorifying and lamenting lyrics were warbled everywhere, therefore, he is the true representative of such identity.

This research comprises an introduction, two chapters and a conclusion. The introduction discusses the concept of identity and Shawki as the poet of the Egyptian identity. The first chapter discusses the extensions of identity, origins and influences. The second chapter discusses the patterns of the Egyptian identity in Shaqki, which is divided into Islamic identity, political identity, pharaonic identity, Christian identity, national identity and international identity.

The research has concluded that all historical eras in Egypt's history influenced the poetry of Shawki greatly and made him the only poet of culture. I have applied the descriptive and analytical methodology because it is able to describe and analyze the literary phenomenon accurately. I have also followed the historical and psychological approach occasionally.

مُقَدِّمَة

بُويِعَ أحمد شوقي أميرًا للشعر العربيّ في عصره ؛ لأنَّ شِعْرَهُ ، الذي لا تُبْلِي جِدَّتَهُ الأَيَّامُ ، ما زَالَ يُقَلِّدُهُ مَنْصِبَ الإِمَارَة للشعر العربيّ في العصر الحديث ؛ لامتلاكه أدوات الشعر ونَاصِيَة البَيَان ، ومقدرته على صياغة المَشَاعِر ، والتعبير عن وطنه : قضاياه ، شعبه ، تاريخه ، ثقافته ، ديانته ، بصورة تكشف عن هُوِيَّتِهِ المِصْرِيَّة ؛ فإنه شَاعِرُ الشَّرْق .

ويَتَّسِمُ شِعْرُه بدِقَّةِ مَعَانِيه وعُمْقَها ، وقد اتَّفَقَتِ الأَقْطَارُ على نُبُوغِه وتَفَوُّقِهِ ؛ وأَجْمَعَتْ عَلَى أَنَّهُ شَاعِرٌ مُفْلِق ، نسيجُ وَحْدِه ، لا يُشَقُّ لَهُ غُبَار ، ويُؤَيِّدُ ذلك أنه جاء بالبديع المُبْتَكَر ، الذي لم يُسْبَق إليه غيره ؛ فهو الشاعر الذي لا يَلْحَقُهُ آخر ؛ فقد استكمل الخِصَال اللُّغَوِيَّة والفِكْرِيَّة في شعره ، أو فَلْنَقُلْ – كَمَا قَال العَقَّاد – : لقد استوفى التقدُّم اللُّغَوِيّ أَمَدَهُ في شوقي .

وتَعْنِي الهُوِيَّة وَعْيَ الإِنْسَان بانتمائه إلى مجتمع أو أُمَّة في إطار الانتماء الإنسانيّ العام ، إِنَّه يحاول توكيد ذاته ، ومَعْرِفَة ما يُرِيدُ لنفسه ، عن طريق اختياره .

ويُقْصَد بالهُوِيَّة المِصْرِيَّة ، أو الثقافة الخاصَّة بالشَّعْب المِصْرِيّ ، الخصائص الانتمائية المُشْتَرَكة بَين المِصْرِيينَ , تلك الخصائص التي تُمَيِّزُ مِصْرَ من غيرها مِنَ الأُمَمِ الأُخْرَى , وتجعل لها خُصُوصِيَّة معرفيَّة , ثقافيَّة , وُجُودِيَّة .

ولقد كان أحمد شوقي لِسَان مِصْر المُعَبِّر عنها ؛ إذ استوعب شِعْرُهُ الحضارات المُتَعَدِّدَة التي مَرَّ بها تاريخ مصر ، ونجح في إبراز معالم الهُوِيَّة

المِصْرِيَّة وخصائصها في كُلِّ عصورها ، بوصفه شاعرًا قوميًّا على وعيٍ فائقٍ بالمؤثِّراتِ المختلفة التي أسهمت في تكوين الهُوِيَّة المِصْرِيَّة .

ويهدف هذا البحث إلى الكشف عن مَلامِحُ الهُوِيَّة المِصْرِيَّة فِي شِعْرِ شَوقِي ، ويُعْنَى برصد تجلياتها اللُّغَوِيَّة ، والحَضَارِيَّة ، والفِكْرِيَّة في شعره .

ولا يقتصر البحث على النظر إلى مصطلح (الهُوِيَّة) بِشَكْلٍ عام ، بل يَتَطَرَّقُ إلى مُصْطَلَح (الهُوِيَّة المِصْرِيَّة) تمثيلاً لِمَعْنَى الهُوِيَّة ، وتَرَسُّمًا لِمَدْلُولاتِهَا في الوَعْي المِصْرِيّ بما فِيهِ مِنْ زَخَمٍ وثَرَاءٍ ، اكتسَبَهُ مِنْ خُصوصِيَّة المكان ، المتمثِّلة في الحدود الثَّابتة لِمِصْر ، عَلَى مرِّ التاريخ ، في إطارٍ جُغْرَافِيّ حَافَظَ على تركيبتها الإنسانيَّة أكثر من أيّ بلدٍ آخر ، كما اكتسبه من البُعدِ التاريخيّ الضَّارب في جُذُور الحضارة الإنسانيَّة .

وقد ظَهَرَ هذا التنوُّع في شعر شوقي ، الذي عَبَّرَ عن الحضارات المُتَعَدِّدَة التي مَرَّ بها تاريخ مصر ؛ لذا فَإِنَّ شِعْرَهُ أفضل تحدٍّ حَضَارِيّ لِمُوَاجَهَة هَذَا الوَافِد الغربيّ الذي يحاول – بقصدٍ أو دون قصد – طَمْسَ مَعَالِم الهُوِيَّة المِصْرِيَّة .

وقد اتَّبَعتُ المَنْهَجَ الوَصْفِيّ التَّحْلِيلِيَّ لِمُناسبتِهِ القضيَّة موضوع الدِّراسة ؛ فانتهجتُ الإجراءات المنهجيَّة في رصدِ الظَّواهِرِ ثُمَّ تَحليلِهَا ، ثُمَّ تِبيان ارتباطاتها بقضيَّة الهُويَّة عَلَى وَفْقِ التَّصنيفِ الذي توزَّع مَنهجيًّا في مَبْحَثَي الدِّراسة .

وقد تضمن البحثُ تمهيدًا ومبحثين وخاتمة ، اشتمل التَّمهيدُ على مفهوم الهُوِيَّة ، وخُصوصيَّة شوقي في تناوله الشِّعريّ للهُوِيَّة المِصْرِيَّة ، وناقشَ المَبْحَثُ الأَوَّل (رَوَافِدُ الهُوِيَّة ؛ جُذُورٌ ومُؤَثِّرات) .

أمَّا المَبْحَث الثَّانِي فقد عرَضَ (أنماط الهُوِيَّة المِصْرِيَّة عند شوقي) ، وانقسم إلى : هُوِيَّة إِسْلامِيَّة ، هُوِيَّة سِيَاسِيَّة ، هُوِيَّة فِرْعُونِيَّة ، هُوِيَّة مَسِيحِيَّة ، هُوِيَّة قَومِيَّة ، ثُمَّ اتَّسَعَتْ فكرة الهُوِيَّة والتَّعبير عنها في شعر شوقي إلى رُؤية إِنْسَانِيَّة عَالَمِيَّة .

تَمْهِيدُ :

للثقافة دَورٌ فَعَّال في معرفة الهُوِيَّة ؛ لأنها – كما ذكر هابرماس – تَعْنِي (نمط حياة) ؛ فَإِنَّ كُلَّ فَرْدٍ يَسْعَى لإشباع مطالبه : الماديَّة والعقليَّة والرُّوحيَّة والأخلاقيَّة والجماليَّة ، وهي تختلف باختلاف البيئة العميقة ، ذلك الاختلاف الناجم عن جدل الجغرافيا والتاريخ [1] .

ولا ريب في أن البحثَ في مصطلح (الهُوِيَّة) أمرٌ غير يسير ؛ « لأنَّهُ ليس بحثًا بريئًا يهدف إلى تحديد مُجْمَل السِّمَات والمَلامح والمُقَوِّمَات التي تُحَدِّد الهُوِيَّة ... إنما هو اختيار ... انحياز... موقف ... إيديولوجيا... برنامج عمل يُحَاوِلُ أَنْ يَبْحَثَ عن هُوِيَّة ما مُتَصَوَّرة في ذِهْنٍ ما .. أَنْ يَبْحَث عن فِرْدَوس مَفْقُود .. عن عصر ذهبيّ ... ثُمَّ يُحَاوِلُ بعد ذلك أن يُطَابِقَ بين ذاته ، وهذه الهُوِيَّة المُخْتَارَة ، هذه الهُوِيَّة النموذج ... وهو في الحقيقة يحاول أن يؤكد ذاته عَبْرَ اختياره » [2] .

وغيرُ خَافٍ أَنَّ البحثَ في الهُوِيَّة « بحث عِلْمِيّ له أبعاده الفلسفيَّة ، بحث في وَحْدَة الانتماء ، بحث عن العام ، والمشترك ، والكُلِّيّ في هذا الذي يبدو وكأنه خاص وفرديّ وجزئيّ . بحث عن الوحدة في المُتَنَوِّع ، بحث عن كل ما يُؤَدِّي إلى التقارب والالتقاء عند نِقَاط مُشْتَرَكَة » [3] .

مَفْهُومُ الهُوِيَّة (Identity) :

لقد تَعَدَّدَتْ مفاهيم الهُوِيَّة ، وكَثُرَتْ ؛ حَتَّى أصبح مِنَ العَسِير وَضْع تعريف جامع مانع لها ؛ فهي مَفْهُومٌ لا يقبل التعريف ؛ بصفتها مفهومًا أنطولوجيًّا وجوديًّا ، له دلالات لُغَوِيَّة ، وتَارِيخيَّة ، وفَلْسَفِيَّة ، واجتماعيَّة ، ونفسيَّة ، وهو

---

(1) انظر : محمود إسماعيل : المِصْرِيُونَ وسُؤَال الهُوِيَّة ، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 2015م ، ص 45 .

(2) محمد راتب الحلاق : نحن والآخر ؛ دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر ؛ الشرق/ الغرب - التراث/ الهُوِيَّة - الممكن / الواقع ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1997م ، ص 54 .

(3) محمد راتب الحلاق : نحن والآخر ، ص 53 .

يتمتع بدرجة عالية من العُمُومِيَّة والتَّجْرِيد تَفُوق مُخْتَلَف المفاهيم الأخرى المُجَانِسَة والمُقَابِلَة له ، وعلى الرغم من الغُمُوض الذي يَلُفُّ مفهوم الهُوِيَّة ويُحِيطُ به ؛ فَإِنَّهُ يمتلك طاقة كشفية تُعِينُ عَلَى فَهْمِ العَالَم بما يشتمل عليه من كينونات الأنا والآخر [1] .

وحقيقة الأمر أننا لا نجد ذكرًا لمصطلح (الهُوِيَّة) في المعاجم العربية القديمة ، مثل : لِسَان العَرَب ، والمِصْبَاح المُنِير ، والقَامُوس المُحِيط .

وقد وَرَدَ في الموسوعة الفلسفيَّة العربيَّة أن كلمة (هُوِيَّتِي) تُسْتَخْدَم في الأدبيات المُعَاصِرَة ، بمعنى مُطَابِق للمصطلح الإنجليزيّ (Identity) ، والمصطلح الفرنسيّ (Identite) ، أي « مُعَبِّرة عن خاصيَّة مُطَابَقَة الشيء لنفسه أو مطابقته لِمِثْلِه » [2] .

ولا نَعْدَمُ محاولات بذلها فلاسفة لتعريف الهُوِيَّة ؛ فعند **أبي نَصْر الفارابي** (ت339هـ) هُوِيَّة الشيء : وحدته ، وتشخُّصه ، وخصوصيته ، ووُجُوده المُنْفَرِد لَهُ ، الذي لا يقع فيه اشتراك [3] ، أي أن هُوِيَّة الشيء ، أو الشَّخْص ، هي مَاهِيَّته الذاتيَّة نفسها ، مُتَمَثِّلَة بِخُصُوصِيَّة مُتَفَرِّدَة على مستوى السُّلُوك ، لا يُشَارِكُهُ فيها أَحَدٌ بالمُطْلَق [4] .

وعند **ابن رُشْد الحفيد** (ت595هـ) تُقَالُ الهُوِيَّة بالترادف على المعنى الذي يُطْلَق عَلَيه اسم المَوجُود ؛ فهي « اسم مُشْتَقّ من حرف الرّبَاط ، الذي يدل على

---

(1) انظر : علي أسعد وطفة : إشكالية الهُوِيَّة والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة ، مجلة المستقبل العربي ، العدد (282) ، 2002م ، ص 100 .

(2) محمد وردي : الهُوِيَّة والمنهجية بين الإبداع والتهافت ، مجلة دُبَيّ الثقافية ، دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع ، دبي ، الطبعة الأولى ، أكتوبر 2014م ، ص 38.

(3) انظر : أبو نصر الفارابي : كتاب الحروف ، حَقَّقَهُ وقَدَّمَ لَهُ وعَلَّقَ عليه مُحْسِن مَهْدِي ، السلسلة الأولى ؛ الفكر العربي والإسلامي (46) ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1990م ، ص 112- 115.

(4) محمد وردي : الهُوِيَّة والمنهجية بين الإبداع والتهافت ، ص37 .

ارتباط المَحْمُول بِالمَوضُوع في جَوهَرِهِ , وهو حرف (هُوَ) في قولهم : زيد هو حيوان أو إنسان » [1] .

أَيْ أَنَّ الجِذرَ اللُّغَوِيَّ للهُوِيَّةِ يُشِيرُ إلى كَينُونَةِ الإنسانِ وجَوهَرِه الأصيل ؛ فلا انفصالَ بينَ كينُونَتِهِ وكَونِهِ هُوَ كَمَا هُوَ ، الأمر الذي يَعْنِي أنَّ الهُوِيَّةَ أصلُ الإنسانِ وجوهرُهُ ، ومكوّنهُ الأسَاس . وهذا ما ذهب إليه **الشريف الجُرْجَانِيّ** (ت816هـ) – في تعريفاته – إذ يقول : « الحقيقة المُطْلَقَة ، المُشْتَمِلَة على الحقائق اشتمال النَّوَاة على الشَّجَرَةِ في الغيب المُطْلَق ، والهُوِيَّة السارية في جميع الموجودات ما إذا أخذت حقيقة الوُجُود لا بشرط شيء ، ولا بشرط لا بشيء » [2] ، بمعنى ثبات خصائص ، أو جوهر ، الهُوِيَّة في الشخص نفسه ثباتًا مطلقًا ؛ مِمَّا يُعطي هذا الجوهر القُدْرَة على الانتقال من جيل إلى آخر ، بالثبات عينه ، كما هو الحال في الدورة الوُجُوديَّة ، بالنسبة إلى الشجرة ونواتها أو بِذْرَتها .

وبذلكَ تكونُ هُوِيَّةُ الإنسَانِ هي شَخصِيَّته وَكِيَانِه ؛ أَي هِيَ هُوَ ؛ فالمَاهِيَّة – كما يرى الشريف الجُرْجَانِيّ – جواب عن السؤال ما هو؟ فإذا وصفنا الإنسان – مثلاً – بكونه عاقلاً ، جاعلين من ذلك مَاهِيَّته ؛ فَإِنَّ هذا القول من حيث إنه مَقُول في جواب (مَا هُوَ) يُسَمَّى (مَاهِيَّة) ، ومن حيث ثبوته في الخارج يُسَمَّى (حقيقة) ، ومن حيث امتيازه مِنَ الأغيار يُسَمَّى (هُوِيَّة) ، ومن حيث حَمْل اللوازم له يُسَمَّى (ذاتًا) ، ومن حيث يستنبط من اللفظ مدلولاً ، ومن حيث إنه مَحَلّ الحَوَادِث يُسَمَّى جَوهَرَا [3] .

وقد وُفِّقَ الشريف الجُرْجَانِيّ حين صَرَّحَ بِتَرَادُف (الهُوِيَّة) مع (المَاهِيَّة) , ولكن جَانَبَهُ الصَّوَاب عندما جعل مفهوم (المَاهِيَّة) يُرَادِف مفهوم (الجَوهَر) , ذلك

---

(1) ابن رشد الحَفِيد : تفسير ما بعد الطبيعة ، تحقيق موريس بويج ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1967م ، 557/2 .

(2) الشريف الجرجانيّ : كتاب التعريفات ؛ مُعْجَم فلسفيّ مَنْطِقِيّ صُوفِيّ فِقْهِيّ لُغَوِيّ نَحْوِيّ ، تحقيق عبد المنعم الحفني ، دار الرشاد ، القاهرة ، 1991م ، ص 286 .

(3) انظر : الشريف الجرجانيّ : كتاب التعريفات ، ص 223- 224 .

الشيء الفريد الذي لا يعتمد وجوده على شيء آخر ، إلا إذا كان يقصد (الجَوَاهِر الثُّنَائِيَّة) ، كما نرى عند رينيه ديكارت (René Descartes) .

فالهُوِيَّة بها يَكُونُ الشيء نفسه , الذي من صفاته الصيرورة , وعدم الثُّبُوت , وإذا كانت الهُوِيَّة تتعدَّد ؛ فمن شأنها أن تُعْطِي صاحبها القدرة على النماء على الصعيد النفسيّ , والتمايُز على الصعيد الغيريّ ؛ « فالهُوِيَّة تعبير عن الحُرية , الحُرية الذاتيَّة , الهُوِيَّة إمكانيَّة قد توجد , وقد لا توجد , إِنْ وُجِدَتْ فالوُجُود الذاتيّ , وإِنْ غَابَتْ فالاغتراب الأبديّ » [1] .

إِنَّ الهُوِيَّة المُتَنَامِيَة هي للإنسان , ومجتمعه , دون الأشياء , وتلك فكرة من أهم الأفكار التي تقوم عليها الفلسفة الوُجُوديَّة ؛ فالمَاهِيَّة سَبَقَتْ وُجُود الأشياء ؛ فالسِّكِّين إنما وُضِعَ ليكون سِكِّينًا , والكتاب ليكون كتابًا ، قَبْل أَنْ يُوجَدَا على هذا النَّسَق ؛ فَهُمْ خَلْقٌ عن فكرة مسبقة في عَقْل الحِرَفِيّ الذي صاغهما .

نقول إِنَّ المَاهِيَّة تختلف عند الإنسان ومجتمعه البَشَرِيّ ؛ حَيثُ يَسْبِقُ الوُجُودُ المَاهِيَّة ؛ فالإنسان يُوجَد أولاً , ثُمَّ يَتَعَرَّف إلى نفسه , ويَحْتَكُّ بالعالم الخارجيّ ؛ فَيَكُون له صِفَاته , ويختار لنفسه أشياء هي التي تُحَدِّدُهُ , إن الإنسان يُوجَد , ثم يُرِيدُ أَنْ يَكُون , ويَكُون مَا يُرِيد أَنْ يَكُونه , بعد القفزة التي يقفزها إلى الوجود ؛ فليس الإنسان – إذن– سِوَى مَا يَصْنَعُهُ هُوَ بِنَفْسِهِ [2] .

ومَعلُومٌ أَنَّ المَاهِيَّة هي العُنْصُر الذي يجعل هذا الشيء عُضْوًا في فِئَةٍ ما ؛ فلا بُدَّ أن يكون للمُثَلَّث – مثلاً – ثلاثة أضلاع لكي ينضم إلى فِئَة المُثَلَّث ؛ « فالإنسان له خصائص مُمَيِّزَة , تتألف منها مَاهِيَّته ؛ فإذا أُرِيدَ التعبير عن هذه الخصائص (المَاهَوِيَّة) ؛ فإنها تَظْهَرُ في صُورة أَحْكَام » [3] .

---

(1) حسن حفني حسين : الهُوِيَّة , المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة , ط1، 2012م ، ص11.

(2) انظر : جان بول سارتر : الوجودية مذهب إنساني , ترجمة عبد المنعم الحفني , الدار المصرية للنشر والتوزيع , القاهرة ، ط1 ، 1964م , ص 11 - 14 .

(3) جان فال : طريق الفيلسوف , ترجمة أحمد حمدي محمود , سلسلة الألف كتاب (637) , مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، 1967م , ص 118 .

وإذا كُنَّا قد أيَّدْنَا أن الهُوِيَّة ترادف المَاهِيَّة ؛ فإنها بذلك تَكُونُ العُنْصُر الذي يجعل الشيء نفسه ، وإذا ألقينا الضوء على مرجعيتها الفلسفيَّة ؛ فإننا نمهِّدُ بذلك للهُوِيَّة بمعناها المجتمعيّ أو السياسيّ أو الوطنيّ .

يقول مُحَمَّد عابد الجابريّ : ليست الهُوِيَّة الثقافيّة « مُعْطًى جاهزًا ونهائيًّا ، هي تصير وتتطور ، إمَّا في اتجاه الانكماش ، وإمَّا في اتجاه الانتشار ، وهي تغتني بتجارب أهلها ومعاناتهم ، وانتصاراتهم وتَطَلُّعَاتهم ، وأيضًا باحتكاكها ... مع الهُوِيَّات الثقافيَّة الأخرى » [1] .

وتَضُمُّ خُصُوصِيَّة الوُجُود : العِرْق والجِنْس والقَوميّة ، والوطن أو الأرض أو المكان ، واللُّغَة والتراث الثقافيّ والدِّين ، والقضية المَرْكَزِيَّة الخاصَّة للوجود في لحظة تاريخيَّة أو عمومًا [2] .

فغالبًا ما يكون الشيء المشترك بين كُلّ جماعة من الناس هو نفسه الشيء المختلف الذي يُمَيِّزُهُمْ من غيرهم .

والواقع أن مصطلح (الهُوِيَّة) يشمل عِدَّة قضايا تتجاذبها عُلُومٌ إِنْسَانِيَّة مُتَنَوِّعَة ؛ فهو يَتَرَدَّدُ بين الفلسفة والاجتماع والسِّياسة والأدب والثَّقافة والتاريخ وعِلْم النَّفْس ؛ إذ تَتَكَوَّن هُوِيَّة الإِنْسَان مِنْ عِدَّة مُعْطَيَات ، كاللغة التي شبَّ متحدِّثًا ومُعبِّرًا بها ، والثقافة التي نَشَأَ عليها وصارت جُزْءًا من صفاته الشخصيَّة ، والعِرق الذي ينتمي إليه بما له من تأثيراتٍ نفسيَّة عميقة ، والحضارة التي تُكَوِّنُ وَعْيَهُ وإدراكه للعالَم ، ورُبَّمَا غير هذا كثير من تفريعات الانتماءات . يقول المؤرخ المسرحيّ وعالم اللغويات الانجليزيّ دانيال تشاندلر (Daniel Chandler) : « الهُوِيَّة هِيَ التعريفات التِي تَتَبَنَّاهَا المجموعات أو الأفراد مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ، أو بإيحاء من

---

(1) محمد عابد الجابري وآخرون : العرب والعولمة ، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ، تحرير أسامة أمين الخولي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، ديسمبر 1998م ، ص298 .

(2) انظر : وليد منير : نص الهُوِيَّة ؛ قراءة في شعر محمود درويش , سلسلة كتابات نقدية عدد (141) ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة , ط1 ، 2003م , ص 10 .

الآخرين ، عَلَى وَفْقِ قَوَالِب ثَقَافِيَّة عَامة أو فرعية ، مثل : الدِّين ، والعِرْق ، والقومية ، واللغة ، والنوع الجنسيّ ، وغيرها مِمَّا يَتَكَوَّن عَبْر فِكْرة تَنْمِيط الاختلاف وصناعة الآخر » [1] .

تَعْنِي الهُوِيَّة – إِذَنْ – في مفهومها العام وَعْيَ الإِنْسَان بانتماءاته المُجْتَمَعِيَّة والإنسانيَّة العامة ، مُتَوَجِّهًا نَحْوَ ما يُرِيدُ لنفسه في وَعْيِه بأهدافه وقضاياه ، يقول عالم النفس الإنجليزيّ الشهير دينياش بورجا (Bhugra) : « يمكن تعريف الهُوِيَّة بوصفها جُلَّ ما يُمْكِن من خلاله لنا كأفراد رؤية ذواتنا ككائنات مُتَفَرِّدَة مستقلة عَمَّا سِوَاها . فالهويات الدينيَّة أو الثقافيَّة أو العِرْقِيَّة ، علي سبيل المثال ، تُمَثِّلُ جُزْءًا لا ينفصلُ من هُوِيَّة الفرد . الهُوِيَّة الفرديَّة للأشخاص – إِذَنْ – تَتَغَيَّر بالتوازي مع تَطَوُّر الفرد علي المستويين : الفَرْدِيّ والاجْتِمَاعِيّ ، وكذلك تبعًا لعوامل أخري مثل : الهجرة أو التَّبَادُل الثَّقَافِيّ » [2] .

---

(1) Chandler, Daniel. 2016. Dictionary of Media and Communication. Oxford University Press.

المقطع المترجم هو:

"The definition of groups or individuals (by themselves or others) in terms of cultural or sub cultural categories (including ethnicity, nationality, language, religion, and gender). In stereotyping, this is framed in terms of difference or otherness".

(2) Bhugra, D. 2004. Migration, Distress and Cultural Identity. British Medical Bulletin.

المقطع المترجم هو:

"identity can be described as the entirety of how we as individuals view or perceive ourselves as unique from others. Racial, cultural and ethnic identities form part of one's identity, and identity will change with the

ويرى ميللر (Miller) أَنَّ هُوِيَّةَ شَخْصٍ مَا هِي : كيف يرى ذلك الشخص نفسه ، وتَعْنِي الهُوِيَّة الجَمَاعِيَّة (Collective Identity) : مدى شعور الفرد بالانتماء إلى جماعات مُتَعَدِّدَة ، كالقبيلة ، والطائفة الدينيَّة ، والدولة [1] .

وقد أُطْلِقَ اصطلاح (فَلْسَفَة الهُوِيَّة) على مذهب (شيلينغ) القائل بوحدة الطبيعة والفكر , ووحدة المَثَل الأعلى والواقع , وكُلّ فلسفة من هذا القبيل ؛ لأنَّها تَجْمَعُ بينهما فِي وَحْدَةٍ لتنفصل , وتُرْجِعهُمَا إِلى شَيءٍ وَاحد هُو المُطْلَق [2] .

لقد تَطَابَقَت الهُوِيَّة في أوَّل الأمر مع الذات ؛ فهي تتعلق بكون شخص ما قادرًا على الاستمرار في أن يَكُونَ ذَاته ، وليس شيئًا آخر ؛ فإن سُؤَال الهُوِيَّة يُعَبِّرُ عن تأكيد مَبَادِئ (الوحدة) في مُقَابِل (التعدُّد أو الكَثْرة) ، و(الاستمرار) في مُقَابِل (التَّغَيُّر والتَّحَوُّل) . وسُرْعَان ما حدث انتقال جِذْرِيّ من المفهوم الميتافيزيقيّ للهُوِيَّة إلى المفهوم السوسيولوجيّ التاريخيّ ، الذي يُعْطَي الذات مفهومًا اجتماعيًّا ؛ فبَدَتْ الهُوِيَّة نسبيَّة ، وتاريخيَّة ، وعُرْضَة للتغيير ، وإعادة التصوير باستمرار [3] .

وهناك مستويات مُتَعَدِّدَة للهُوِيَّة ، منها : الهُوِيَّة العَرَبِيَّة الإِسْلامِيَّة ، الهُوِيَّة الفَرْدِيَّة ، الهُوِيَّة الاجْتِمَاعِيَّة ، الهُوِيَّة الجُزْئِيَّة ، الهُوِيَّة الثَّقَافِيَّة ، الهُوِيَّة

---

development at a personal as well as at a social level along with migration and acculturation".

(1) انظر : محمود ميعاري : الهُوِيَّة الدِّينيَّة وعلاقتها بالهُوِيَّات الأُخْرَى بين الفِلَسْطِينيّين فِي إِسْرَائِيل ، ضمن كتاب (الدين في المجتمع العربي) ، الجمعية العربية لعلم الاجتماع ، ندوة الدين في المجتمع العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط2 ، 2000م ، ص 515 .

(2) انظر : جميل صليبا : المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1972م ، 532/2 .

(3) ضياء الدين زاهر : اللغة ومستقبل الهوية ؛ التعليم نموذجًا ، وحدة الدراسات المستقبلية ، مكتبة الإسكندرية ، 2017م ، ص 28 – 29 .

القَومِيَّة ، الهُوِيَّة الوَطَنِيَّة ، الهُوِيَّة الدِينِيَّة ، الهُوِيَّة العِرْقِيَّة ، الهُوِيَّة الإثنيَّة ، وغيرها ، وتتغير الهُوِيَّة بتَغَيُّر المُؤَثِّرَات الخارجيَّة .

ويُعِيدُ الفضاءُ الاجتماعيُّ الذي تَوَلَّدَتْ مِنْهُ الهُوِيَّة « إنتاجها باستمرار ، وما دام هذا الفضاء مفتوحًا على الآخر المُخْتَلِف ؛ فَإِنَّ الهُوِيَّة سَتَظَلُّ حَيَّة . وعليه فَإِنَّ تحديد الهُوِيَّة أو إعادة إنتاجها لا يُمْكِن أَنْ يَتِمَّ بِمَعْزَلٍ عن هذا الآخر (المُخْتَلِف) ؛ فكلّ حديث عن الهُوِيَّة يستحضر – عن قصد أو عن غير قصد – مسألة الاختلاف ، ويتناسل حديث الهُوِيَّة والاختلاف إلى ثُنَائِيَّات مُتَقَابِلَة ، من مثل : الأنا والآخر ، الشرق والغرب ، الأصالة والمعاصرة » [1] .

وقد اختلف الباحثون فيما بينهم – اختلافًا بَيِّنًا – فِيمَا يُكَوِّنُ هُوِيَّة الشخص ؛ فهي التفكير والوعي عند ديكارت ، والشعور والإحساس عند جون لوك (John Locke) ، والإرادة عند أَرْثُور شُوبِنْهَوَر (Schopenhauer) ، والصراع بين الغرائز (الهُوَ) ، والمُثُل الأَخْلاقِيَّة (الأنا الأعلى) من جهة ، وضُغُوط الوَاقِع الاجتماعيّ من جهة أخرى عند سيجموند فرويد (Sigmund Freud) ، والوحدة النفسية في الزمان عند لاشولييي (La Chelier) [2] .

إِنَّ البَحْثَ عن الهُوِيَّة في شعر شوقي محاولة للوصول بالمجتمع المِصْرِيّ إلى الإطار المرجعيّ الصالح ؛ « الذي يُؤخَذ مِنْ أنفسنا ومِمَّنْ حولنا ، وإذا لم

---

(1) سعيدة بن بوزة : الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربيّ ، رسالة دكتوراة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جَامِعَة الحاج لخضر ، باتنة ، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، 1429هـ - 2008م ، ص 28 – 29 .

(2) انظر : محمد نافع العشيري : مفهوم اللغة ومفهوم الهوية ومظاهر التفاعل ، مجلة عالم الفكر ، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، مجلد (43) ، عدد (4) ، إبريل - يونيو 2015م ، ص 229 – 230 .

نبدأ بهذا الإطار ؛ فلن يكون لدينا فِكْر أو إِنْتَاج » [1] ، هذا الهدف يتمثل في تحديد ملامح هُوِيَّتنا الضاربة في أعماق التاريخ ، والمُمْتَدَّة إلى آفاق المستقبل .

شَوقِي شَاعِرُ الهُوِيَّة المِصْرِيَّة :

إذا بحثنا في الشعر المصريّ عن أُنْمُوذَج لهذا الانتماء , لن يجهد الباحثُ كثيرًا , قَبْل أن يجد أحمد شوقي شاعرًا مِصْرِيًّا مُعَبِّرًا – خير تعبير – عن هُوِيَّتها , فكان – بحقٍّ – رُوح مصر المُتَكَلِّم بِلِسَانِهَا [2] ، الذي استطاع أن يجمع في شعره خصائص الهُوِيَّة المِصْرِيَّة في كُلّ عصورها ؛ فقد « وَسَّعَ في دائرة المَدْح العَرَبِيّ ، وغَيَّرَ مِنْ وَجْه الهِجَاء القَدِيم ؛ فكان بذلك شاعر الحضارة بِحَقّ » [3] .

وإذا كان شوقي ضيف قد لَقَّبَهُ بشاعر العصر الحديث ؛ فَلَعَلَّه يقصد شاعر مصر في العصر الحديث ؛ حيث عَبَّرَ عن نَبْض مِصْر : شعبها ، تاريخها ، ديانتها ، ثقافتها ، وقد يكون أحد أسباب تلك التَّسْمِيَة أنه شاعر الهُوِيَّة المِصْرِيَّة في العصر الحديث ؛ فقد أصبحت مصر به سَيِّدَة العَالَم العربي في

---

(1) أحمد خليفة : الهُويَّة والتراث ، ندوة شارك فيها عدد من الباحثين ، دار الكلمة ، بيروت ، ط1 ، 1984م ، ص 95.

(2) يقول مصطفى صادق الرافعي عن شوقي في كتابه (وحي القلم) : « هذا هو الرجل الذي يُخَيَّلُ إِلَيَّ أن مِصْرَ اختارته ، دون أهلها جميعًا ؛ لتضع فيه رُوحَها المُتَكَلِّم ؛ فَأَوجَبَتْ لَهُ مَا لَمْ تُوجِبْ لغيره ، وأعانته بما لم يتفق لِسِوَاه ، ووهبته مِنَ القُدْرَةِ والتَّمْكِينَ وأَسْبَاب الرِّيَاسَة وخَصَائِصَها على قَدْرِ أُمَّة تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ شَاعِرَةً ، لا على قَدْر رَجُل في نفسه ، وبه – وَحْدَهُ - استطاعت مصر أن تقول للتاريخ : شعري وأدبي! » .

- مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم , راجعه واعتنى به درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ، صَيدَا , بَيرُوت ، 2002م , 279/3 .

(3) حلمي علي مرزوق : شوقي وقضايا العصر والحضارة , دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ط2 , 1981م , ص 161 .

الشعر ، بعد أن وضع تَاجَ الشِّعْر على مفرقها [1] ؛ فقد سَخَّرَ قَلَمَهُ لتخليد مآثرها ، ولم يترك حادثة سياسية بارزة أو واقعة تاريخية مُؤَثِّرَة إلا وسجلها في شعره .

يقول مصطفى صادق الرافعي (1937م) : « شوقي : هذا هو الاسمُ الذي كانَ في الأدب كالشَّمْس مِنَ المَشْرِق : مَتَى طَلَعَتْ فِي مَوضِعٍ فَقَدْ طَلَعَتْ فِي كُلِّ مَوضِع ، ومَتَى ذُكِرَ فِي بَلَدٍ مِنْ بِلاد العَالَم العَرَبِيّ اتَّسَعَ مَعْنَى اسْمِهِ فَدَلَّ عَلَى مِصْرَ كُلِّهَا ، كَأَنَّمَا قِيلَ النِّيلُ أو الهَرَمُ أو القَاهِرَة » [2] .

وقد استطاع شوقي أن يجمع في شعره خصائص الهُوِيَّة المِصْرِيَّة في كُلّ عصورها ؛ وما ذاك إلا لاتصافه بتَوَفُّز الإحساس ، بالقياس إلى قضايا أُمَّتِه ، وأوضاع عصره [3] ؛ « فالتاريخ والحضارة والناس والمواضعات والأعراف والتُّرَاث ، كُلّ أُولئك حَاضِرٌ في ذهنه ووِجْدَانه ومشاعره » [4] .

إنه « من أبرز الشعراء في تَعَمُّقِهِ الأشياء ؛ حَتَّى يَصِلَ إلى أغوارها ، يتحدث بِمَا أحسّ ، وما انتهى إليه مِنْ شُعُور ، حديث المُلْهَم من ناحية ، وحديث صاحب التجربة من ناحية أخرى » [5] .

والحَقُّ أَنَّهُ لَمِنَ الشائك والشائق أن يكون الأديب مِصْرِيًّا , الشائك لأنَّ مِصْرَ صاحبة تُرَاث حَضَاريّ عَرِيق , والشائق بسبب هذا الثَّرَاء المعرفيّ الثقافيّ ، الذي يُنْتَجُ مِنْ هذه الهُوِيَّة الضخمة ؛ وذلك لكثرة ما مَرَّ بِمِصْرَ مِنْ حروب ، تركت فيها أثرًا بارزًا غَيرَ مَنْكُور ، وجعلتها مزيجًا مِنْ عِدَّة حَضَارات .

فقد غَيَّرَتْ مِصْر لغتها وديانتها ثلاث مرات عبر التاريخ المُدَوَّن : المَرَّة الأُولَى منذ عام 3100 ق . م إلى أن دخل الإسكندر الأكبر مصر 332 ق .

---

(1) انظر : مصطفى صادق الرافعي : وحي القلم ، 280/3 - 281 .

(2) المرجع السابق ، 279/3 .

(3) انظر : حلمي علي مرزوق : شوقي وقضايا العصر والحضارة , ص 195 .

(4) المرجع السابق , ص 202 .

(5) أحمد عبد المجيد : أحمد شوقي الشاعر الإنسان , دار المعارف ، القاهرة ، د . ت ، ص 8 .

م ، وكانت لُغَة المِصْرِيّينَ في هذه الفترة اللغة المِصْرِيَّة القديمة ، التي كُتِبَتْ وقتها بثلاث لغات : الهيروغليفيَّة ، والهيراطيقيَّة ، والديموطيقيَّة [1].

ثُمَّ دخل الإسكندر مِصْر ، وفَرَضَتْ اللغة اليونانيَّة نفسها ، وظهرت اللغة القبطيَّة ؛ حَيثُ اسْتَخْدَمَ المِصْرِيونَ تدريجيًّا اللُّغَّة القِبْطِيَّة ، بأن كَتَبُوا اللُّغَّة المِصْرِيَّة القديمة كما ينطقونها بحُرُوف يونانيَّة ، مُسْتَعِيرِينَ مِن الديموطيقية سبعة أحرف لعجز اليونانيَّة عن أدائها [2] .

ودَخَلَتْ المسيحيَّة بعد دخول الإسكندر بثلاثة قرون ونصف ، وآمَنَ بها المصريون ؛ ليتخلصوا من الاحتلال وقتئذٍ . وفي القرن السابع الميلاديّ دخل العرب إلى مصر ومعهم الإسلام [3] .

وقد استغرق انتقال المِصْرِيينَ من اللُّغَة القبطيَّة إلى اللغة العربيَّة عِدَّة قُرُون [4] ؛ لأنَّ المصريينَ كانت لهم عَبْر العُصُور المختلفة لُغَة واحدة ؛ ولكي ينتقل المصريون من المسيحية إلى الإسلام ظَلُّوا سِتَّة قرون ، وآثر بعضُهُمْ البَقَاء على مسيحيته ، واستمرَّ الإسلام والمسيحية شَرِيكَينِ فِي وطنٍ واحد منذ القرن السابع الميلاديّ حَتَّى وقتنا هذا .

---

(1) انظر : أشرف محمد فتحي : محاولة التقريب بين المصرية القديمة والعربية ؛ الاتجاهات والمناهج ، ضمن كتاب (الوحدة والتنوع في اللهجات العروبية القديمة) ، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، مجمع اللغة العربية ، طرابلس ، ليبيا ، ط1 ، 2005م ، ص 131 – 144 .

(2) انظر : انطون زكري : مفتاح اللغة المصرية القديمة وأنواع خُطُوطها وأهم إشاراتها ومبادئ اللغتين القبطية والعبرية ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط ، 1417هـ - 1997م .

(3) انظر : وليام فلندرز بتري : الحياة الاجتماعية في مصر القديمة ، تَرْجَمَهُ وعَلَّق عَلَيهِ وقَدَّمَ لَهُ حسن محمد جوهر وعبد المنعم عبد الحليم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1975م ، التمهيد (تَبَت بِالتَّرْتِيب الزَّمَنِيّ لِمُلُوك مِصْر المَشْهُورِينَ) ، ص 7 - 16 .

(4) انظر : جمال حمدان : شخصية مصر وتعدُّد الأبعاد والجوانب ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1994م ، ص 38- 39 .

ولا شك في أنَّ المصريين يعتزون بانتماءاتهم المُتَعَدِّدَة : الفِرْعُونيَّة واليونانيَّة والمسيحيَّة والإسلاميَّة ، التي أَثَّرَتْ تأثيرًا بالغًا في تكوين الشخصيَّة المِصْرِيَّة .

وقد تناول جمال حمدان تأثير تعدُّد الأبعاد والجوانب في شَخْصِيَّة مصر ، وأَكَّدَ أَنَّ أُمَّةَ مِصْر متعددة الآفاق ؛ مِمَّا يُثْرِي شخصيتها الإقليميَّة والتاريخيَّة ، ويُبْرِزُ عبقريَّة المكان فيها ، إِنَّ مَوقِعَ مِصْر فَلْتَة جُغْرَافِيَّة ، لا تتكرر في أي ركن من أركان العالم ؛ فالمكان لا يُعِيدُ نفسه [1] .

ولا يقتصر الأمر على تأثير تَوَالِي الحضارات في شخصية مِصْر فقط ، بل نجد للموقع الجغرافيّ عظيم الأثر ؛ فقد أعطاها هذا الموقع خصائص جعلتها قلب الأمة العربيَّة ، والعنصر المُؤَثِّر في إفريقيا ؛ فهي تقع في إفريقيا ، ولكنها تَمُتُّ – أيضًا – إلى آسيا بالتاريخ ، وبالمَوقِع المُتَمَثِّل فِي شِبْه جَزِيرَة سَينَاء ، فرعونيَّة بالجَدّ ، ولكنها عَرَبِيَّة بالأَب ، ثُمَّ إِنَّهَا بجسمها النَّهْرِيّ قُوَّة بَرّ ، ولكنها بسواحلها قُوَّة بَحْر ، وهي بموقعها على خَطِّ التقسيم التاريخيّ بين الشرق والغرب تقع في الأول ، ولكنها تُوَاجِه الثاني ، وتكاد تراه عَبْر المتوسط ، وتَمُدُّ يَدًا نحو الشمال ، وأخرى نحو الجنوب ، وهي تُوشِك – بعد هذا كله – أن تكون مركزًا مشتركًا لثلاث دوائر مختلفة ؛ بحيث صارت مَجْمَعًا لعوالم شَتَّى ؛ فهي قَلْب العالَم العربيّ ، وواسطة العالَم الإسلاميّ ، وحَجَر الزاوية في العالم الإفريقيّ ، وهذا يعني أنها تجمع بين أطراف مُتَعَدِّدَة غنيَّة ، وجوانب كثيرة خِصْبَة وثَرِيَّة ، وأبعاد وآفاق واسعة تجعلها أُمَّةً وسطًا بكل معنى الكلمة ، وسط في الموقع والدور الحضاريّ والتاريخيّ [2] .

---

(1) انظر : جمال حمدان : شخصية مصر وتعدُّد الأبعاد والجوانب ، ص 14 . وانظر : فؤاد محمد شبل : دور مصر في تكوين الحضارة ، المكتبة الثقافية (270) ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، 1971م .

(2) انظر : جمال حمدان : شخصية مصر وتعدُّد الأبعاد والجوانب ، ص 13 – 14 .

لقد تعددت أعمدة مِصْر : مكانًا , وزمانًا , ولُغَةً , ودِيَانةً , وأجناسًا مختلفة ؛ مِمَّا كَوَّن صَرْحًا حَضَارِيًّا شَامِخًا , وهو ما يجعل هذا الانتماء الواسع عِبْئًا على العوام بشكل أو آخر ؛ فعلى الرغم مِنْ أَنَّ « هذه الأعمدة داخلة في التركيبة الإنسانيَّة لكل مصريّ ؛ فهي منطقيًّا وطبيعيًّا ليست أعمدة مُتَسَاوِيَة في الطُّول والقصر والمَتَانَة , إِنَّ إِحْسَاس المِصْرِيّ بهذه الانتماءات يختلف من شخص إلى آخر » [1] .

لقد تكونت الأُمَّة المِصْرِيَّة من عناصر مختلفة ؛ ففيها امتزجت « الدماء الفرعونيَّة والفارسيَّة واليونانيَّة والرومانيَّة ، فضلاً عن الأتراك والأرمن والأكراد والمماليك ، الذين كانوا – بِدَورِهِمْ – من أعراقٍ شَتَّى » [2] .

وهذا الأمر محلُّ التميُّز عند شوقي ؛ فَإِنَّ الأَعْمِدَة التي تُكَوِّن الشَّخْصِيَّة المصريَّة ، أو قُلْ الهُوِيَّة المصريَّة ، ظهرت واضحة في شعره ، من فرنسا غربًا , حينما وقف على قبر نابليون , مرورًا بسويسرا وروما وأثينا والآستانة وروسيا , وانتهاءً بطوكيو في اليابان .

لقد شَعَرَ أَنَّ ثمَّة رابطًا يربط بين أبناء العُرُوبة , وكان هذا الرابط في تصوُّره هو الانتماء إلى المَشْرِق ؛ ولذلك استخدم كلمة (الشرق) كُلَّمَا أراد الإشارة إلى الأقطار العربيَّة ، واهتمَّ بِأَمْرِ البُلْدَانِ الشَّرْقِيَّة ؛ كسوريا ولُبْنَان على وجه الخصوص .

وعندما نقرأ شعره نجد إشاراتٍ تاريخيَّة ؛ فقد كتب شعرًا عن التاريخ الإسلاميّ صاغ فيه أحداث عصر فجر الإسلام ، وأسماه (ديوان العرب وعظماء الإسلام) [3] .

---

(1) ميلاد حنا : الأعمدة السبعة للشخصية المصرية , مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب , القاهرة ، 2013م , ص 28 .

(2) محمود إسماعيل : المِصْرِيُونَ وسُؤَال الهُوِيَّة ، ص 47 .

(3) انظر : أحمد شوقي : دول العرب وعظماء الإسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1970م .

لقد عَبَّر شوقي ، بوصفه شاعر الهُوِيَّة المِصْرِيَّة ، عن الوحدة السياسيَّة والحضاريَّة والثقافيَّة والدينيَّة لمصر ، يقول في قصيدته (استقبال) :

وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ فِي الأَرْضِ التِي حَمَلَتْ

مُوسَى رَضِيعًا وَعِيسَى الطُّهْرَ مُنْفَطِمَا (1)

لعلَّه هنا يُخاطِبُ غير المصريين طالبًا منهم معرفة حَقّ مِصْر وقَدْرِها بين سائر البلاد ؛ فهي مَهْبِط الأديان ، وراعيتها في بداية مراحلها ؛ فحين يستضعفها أعدائها ، تحميها مصر وتدفع عنها ما تدفعه الأُمّ عن رضيعها أو فطيمها الصغير ؛ لذلك كانت هذه الصُّورة الشِّعرية مُعبِّرَةً بحق عن مكانة مصر وعظمتها ورعايتها للعالَم أجمع .

ويقول في قصيدته (مِصْر) ، وكان قد أَعَدَّ وَلِيمَةً إلى الكاتب الإنجليزي المستر هول كي :

أَيُّهَا الكَاتِبُ المُصَوِّرُ ، صَوِّرْ مِصْرَ بِالمَنْظَرِ الأَنِيقِ الخَلْيقِ

إِنَّ مِصْرًا رِوَايَةُ الدَّهْرِ ؛ فَاقْرَأ عِبْرَةَ الدَّهْرِ فِي الكِتَابِ العَتِيقِ (2)

يقفُ شوقي هُنا موقف المُفاخِرِ ؛ فيدعو الكاتب الإنجليزيّ – في لهجةٍ آمرةٍ مُتعاليَة – إلى تصويرِ مِصْر بما يليق بها ، ويتوافق مع طبيعتها الرَّاقية ، ويأمره بالنَّظر إليها بوصفها كِتَابًا فيه حِكْمة الدَّهرِ وميلاد الحضارة ، والوقوف منها موقفَ المُتَعَلِّمِ الخاضع .

يقول في القصيدة التي أُلْقِيَتْ في دار الأُوبَرا في حفلة افتتاح مؤتمر تكريمه الذي انعقد فيها :

رُبَّ جَارٍ تَلَفَّتَتْ مِصْرُ تُوَلِّيـ ـهِ سُؤَالَ الكَرِيمِ عَنْ جِيرَانِه

بَعَثَتْنِي مُعَزِّيًا بِمَآقِي وَطَنِي ، أَو مُهَنِّئًا بِلِسَانِـهِ

كَانَ شِعْرِي الغِنَاءَ فِي فَرَحِ الشَّرْ قِ ، وَكَانَ العَزَاءَ فِي أَحْزَانِه (3)

---

(1) أحمد شوقي : الشوقيات ، دار العودة ، بيروت ، 1988م , 1/ 215 .

(2) أحمد شوقي : الشوقيات , 2/ 79 .

(3) المصدر السابق , 2/ 193 .

إنَّ شوقي الشاعر المصريّ الناطق بلسان بلده لا ينساها حتَّى في معرِضِ تكريمِه ؛ إنَّهُ يُقِرُّ أنَّه لسان مصر وشاعرها ؛ مِمَّا بوَّأَهُ هذه المكانة الرفيعة بين الشعراء ، وذلك لا يدلُّ على وطنيَّته وتعلقه ببلده كأيِّ إنسانٍ وطنيّ فحسب ، وإنَّما يدلُّ كذلك على عِظَمِ مكانها عنده ، واعتزازه بها بوصفها جزءًا من نفسه ، وكينونته ، وهُويَّته .

ويُؤَكِّدُ شِعْرُهُ شِدَّة تَعَلُّقِهِ بِمِصْر ، واعتزازه البالغ بانتمائه إليها ، كما نرى في قوله في أثناء نفيه في الأندلس في قصيدته (الرحلة إلى الأَنْدَلُس) :

وَطَنِي لَو شُغِلتُ بِالخُلدِ عَنهُ نازَعَتني إِلَيهِ فِي الخُلدِ نَفْسِي

شَهِدَ اللهُ ، لَمْ يَغِبْ عَنْ جُفُونِي شَخْصُهُ سَاعَةً ، وَلَمْ يَخْلُ حِسّي [1]

وهي قصيدة طويلة جِدًّا ، تحدّث فيها عن مِصْرَ ومعالمِها ، وبثَّ حنينَه وشوقَه إلى رؤيتها ، كما تناول الحضارة العربيَّة في الأندلسَ ، ونعى آثارَها الخالدة ، وبكى زوالَ دولة الإسلام فيها .

ولا يقبل شوقي بديلاً من مصر ؛ حَتَّى لو كانت جَنَّة الخُلْد ؛ لدرجة أنه لو مُنِحَ فيها الخُلُود لتمنَّى عودته إلى وطنه ، الذي تعلَّق به ؛ فهو جزءٌ منه لا يُمْكِن فَصْلُه أو نسيانه .

والمُتَتَبِّع لحياة شوقي يجد أنه عَاصَرَ أحداثًا مُتَنَوِّعَة ، وقد ظهرت آثار هذه الحياة في شعره بوضوح ، وزاد نفيه إلى إسبانيا شعره ثراءً ، وأمده بتجارب شعريَّة جديدة ، وأكسبه معارف واسعة ؛ فإنَّ شعره في المنفى يُظْهِرُ « الاعتبار بالماضي والاتعاظ بالأحداث ، وشوقي يصدر عن ثقافته التاريخيَّة ، وعن طبيعة الأرض التي عاش عليها مُدَّة نَفْيِه ، والتي تَقُصُّ كُلُّ بُقْعَةٍ من بِقَاعِهَا طَرَفًا من حديث المجد العربيّ الإسلاميّ الزائل » [2] .

يقول بعد عودته من المنفى في قصيدته (بعد المنفى) :

---

(1) أحمد شوقي : الشوقيات , 2/ 46 .

(2) عبد الهادي محمد : الأخلاق في شعر أحمد شوقي ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، الجزائر ، العدد الخامس ، 2009م ، ص 5.

وَيَا وَطَنِي ، لَقِيتُكَ بَعْدَ يَأْسٍ كَأَنِّي قَدْ لَقِيتُ بِكَ الشَّبَابَا
وَكُلُّ مُسَافِرٍ سَيَؤُوبُ يَومًا إِذَا رُزِقَ السَّلامَةَ وَالإِيَابَا
وَلَو أَنِّي دُعِيتُ لَكُنْتَ دِينِي عَلَيهِ أُقَابِلُ الحَتْمَ المُجَابَا
أُدِيرُ إِلَيكَ قَبْلَ البَيتِ وَجْهِي إِذَا فُهْتُ الشّهَادَةَ وَالمَتَابَا
وَقَدْ سَبَقَتْ رَكَائِبِيَ القَوَافِي مُقَلَّدَةً أَزِمَّتَهَا ، طِرَابَا (1)

وكلقاء الحبيبينِ بعد طُولِ البِعَادِ يَلقى شوقي محبوبته (مِصْر) ؛ لِيُغَنِّي لها أغنية الوِصَال ، وكأنَّهُ يُطَمْئِنُ نَفْسَهُ بعد اليأسِ مِنَ اللقاء ، ويبكي – فرحًا – غيبته عنها ؛ فَتَنْسَاب الحِكْمَة في شعره : (وَكُلُّ مُسَافِرٍ سَيَؤُوبُ يَومًا ، إِذَا رُزِقَ السَّلامَةَ وَالإِيَابَا) ، وتَخْتَلِطُ بِمُبَالَغَةِ المُشْتَاق : (وَلَو أَنِّي دُعِيتُ لَكُنْتَ دِينِي ، عَلَيهِ أُقَابِلُ الحَتْمَ المُجَابَا) .

وفي قصيدته (العِلْم ، والتَّعْلِيم ، وواجِب المُعَلِّم) ذكر افتتاح أول برلمان في مِصْر يوم السبت الموافق 15 مارس 1924م ، يقول :

مِصْرٌ إِذَا مَا رَاجَعَتْ أَيَّامَهَا لَمْ تَلْقَ لِلسَّبْتِ العَظِيمِ مَثِيلا
البَرْلَمَانُ غَدًا يُمَدُّ رُوَاقُهُ ظِلاًّ عَلَى الوَادِي السَّعِيدِ ظَلِيلا (2)

يتغنَّى شوقي – هنا – أملاً في مُسْتَقْبَلٍ أَفْضَلَ لِبِلادِهِ ، ويُمَنِّي نَفْسَهُ ووطنه بالرَّخاء والأمن اللذين سَيُوَفِّرُهَما البَرْلَمَان المِصْرِيّ .

ولا يقتصر دور شوقي على نظم آيات الثناء ، بل نراه يُعَنِّفُ المصريين إذا أَحَسَّ منهم قُصُورًا , كقوله يصف التناحُر الذي أصاب مِصْر سنة 1924م في قصيدته (شهيد الحق) :

إِلامَ الخُلْفُ بَيْنَكُمُ ؟ إِلامَا ؟ وَهَذِي الضَّجَّةُ الكُبْرَى عَلامَا ؟
وَفِيمَ يَكِيدُ بَعْضُكُمُ لِبَعْضٍ وَتُبْدُونَ العَدَاوَةَ وَالخِصَامَا ؟
وَأَينَ الفَوزُ ؟ لا مِصْرُ اسْتَقَرَّتْ عَلَى حَالٍ ، وَلا السُّودَانُ دَامَا ؟

---

(1) أحمد شوقي : الشوقيات , 66/1 .

(2) أحمد شوقي : الشوقيات , 183/1 .

وَأَينَ ذَهَبْتُمُ بِالحَقِّ لَمَّا رَكِبْتُمْ فِي قَضِيَّتِهِ الظَّلامَا ؟

وَكَانَتْ مِصْرُ أَوَّلَ مَنْ أَصَبْتُمُ فَلَمْ تُحْصِ الجِرَاحَ وَلا الكِلامَا [1]

إِنَّهُ شَاعرُ الشَّعْبِ المِصْرِي ، النَّاطِقُ بِلِسَانِ العُرُوبَة ؛ لذا عندما رأى زعماءَ الأحزابِ وصُحفَها يَتَنَاحَرُونَ فِيمَا بَينَهُمْ ، والمحتلُّ الإنجليزيّ يَعِيثُ فَسَادًا في الوطن ، نَهَرَهُمْ بِشِدَّة ، وأَبْدَى تَعَجُّبَه من موقفهم المُخْزِي ، الذي يُفرّق بين أبناء الوطن الواحد ، ويَتَنَاسَى ما بينهم مِنْ هُوِيَّة مُشْتَرَكَة ، تَمْتَدُّ بِجُذُورِهَا فِي عُمْقِ التَّارِيخ والحَضَارَة الإِنْسَانِيَّة .

يقول في نهر النيل في قصيدة (أَيُّهَا النِّيل) :

مِنْ أَيِّ عَهْدٍ فِي القُرَى تَتَدَفَّقُ ؟ وَبِأَيِّ كَفٍّ فِي المَدَائِنِ تُغدِقُ ؟

وَمِنَ السَّمَاءِ نَزَلْتَ أَمْ فُجِّرْتَ مِنْ عُلْيَا الجِنَانِ جَدَاوِلاً تَتَرَقْرَقُ ؟

أَصْلُ الحَضَارَةِ فِي صَعِيدِكَ ثَابِتٌ وَنَبَاتُهَا حَسَنٌ عَلَيكَ مُخَلَّقُ [2]

يتناولُ شوقي نهرَ النِّيل ؛ فَيَسْأَل فِي إِعْجَابٍ وانبهار عن هذه الهِبَة التي مَنَحَهَا اللهُ وَطَنَهُ ، ويعترف بفضله العميم في بناء حضارة مصر ؛ فهو أصلُ الحياة فيها .

يقول في قصيدة (تِمْثَال نَهْضَة مِصْر) :

وَإِنِّي لِغِرِّيدُ هَذِي البِطَاحِ تَغَذَّى جَنَاهَا وَسَلْسَالَهَا

تَرَى مِصْرَ كَعْبَةَ أَشْعَارِهِ وَكُلِّ مُعَلَّقَةٍ قَالَهَا [3]

لقد نَصَّبَ نَفْسَهُ شَاعر تِلْكَ البِقَاع ، المَنُوطَ بِهِ رَصْد مَآثِرها ، وتَخْلِيدها فِي شِعْرِه ، لقد ارتبط بوقائع الحياة في مصر , وعبَّر عنه , مثلما عَبَّرَ عن رُوحِهَا التاريخيَّة الحضاريَّة ؛ فنراه يقول في قصيدة (أَيُّهَا العُمَّال) :

أَيُّهَا العُمَّالُ ، أَفْنُوا الـ عُمْرَ كَدًّا وَاكْتِسَابَا

---

(1) المصدر السابق , 1/221- 222 .

(2) أحمد شوقي : الشوقيات , 2/ 65 ، 72 .

(3) المصدر السابق , 2/ 184 .

وَاعْمُرُوا الأَرْضَ ؛ فَلَولا سَعْيُكُمْ أَمْسَتْ يَبَابَا [1]

ويؤازر المرأة بوصفها عنصرًا بارزًا في تقدُّم المجتمع , يقول في قصيدته (مصر تُجَدِّد نفسها بِنِسَائِهَا المُتَجَدِّدَات) :

قُمْ حَيِّ هَذِي النَّيِّرَاتِ حَيِّ الحِسَانَ الخَيِّرَاتِ

وَاخْفِضْ جَبِينَكَ هَيبَةً لِلخُرَّدِ المُتَخَفِّرَاتِ [2]

نَالَ نِسَاءُ مصرَ تقديرًا خاصًّا ؛ اعترافًا بمكانتهِنَّ في صُنعِ التَّاريخِ والحضارة ؛ فبَدَتْ سَعَادَةُ المرأة المِصْرِيَّة « فِي بَلَدٍ يبدو أنَّ المُسَاوَاةَ بين الجِنْسَينِ فيه كانت مُنْذُ القِدَمِ أمرًا طبيعيًّا تمامًا ، وتمتدُّ جذورُها إلى أعمق الأعماق ... كانت مصر في نِطَاق العُصُور القَدِيمَة البلد الوحيد الذي خصَّص فعلاً للمرأة وضعًا قانونيًّا يتساوى مع الرجل » [3] .

كما شارك شوقي في كثير من الأحداث بشعره , كإطلاق سُجَنَاء المحاكم العَسْكَرِيَّة في وِزَارَة سَعْد زغلول ، وقصيدته عن أول طَيَّار مِصْرِيّ ، وإنشاء نقابة للصحافة [4] , وظاهرة انتحار الطلبة بعد الرُّسُوب في الامتحانات [5] , وقصيدته عن المُعَلِّم وفَضْله [6] ، فضلاً عن اهتمامه بأمر سياسة مِصْر الداخليَّة , وصراعها مع الاحتلال الإنجليزيّ وقتئذٍ , كموقفه من اللورد كرومر [7] , وذكرى دنشواي

---

(1) المصدر نفسه , 1/ 90 .

(2) المصدر نفسه , 1/ 102 .

(3) كريستيان ديروش نوبلكور : المرأة الفرعونية ، ترجمة فاطمة عبد الله محمود ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2016م ، ص23 – 24 .

(4) أحمد شوقي : الشوقيات , 1/ 159 - 161 .

(5) المصدر السابق , 1/ 125 - 129 .

(6) المصدر نفسه , 1/ 180- 184 .

(7) المصدر نفسه , 1/ 173- 176 .

[1] ، وقد أُبْعِدَ اللورد كرومر من مِصْر من أَثَرِ انفعال الناس بقصيدة شوقي (ذكرى دنشواي) .

وهو في ذلك يقوم بدور الشاعر القوميّ , المنغمس في نسيج الوطن الذي يعيش فيه , منطلقًا من منطق ديمقراطيّ , واقفًا موقف المُعَلِّم ؛ لذلك نجد الخطابيَّة واضحة في كثير من قصائده .

المَبْحَثُ الأَوَّلُ : رَوَافِدُ الهُوِيَّةِ ؛ جُذُور ومُؤَثِّرَات :

تختلف هُوِيَّةُ كلِّ أمةٍ عن غيرها مِنَ الأُمَم تِبْعًا لاختلاف ثقافتها وقوميتها ومرجعيتها الدينيَّة أو السياسيَّة أو المعرفيَّة ؛ فلكل أُمَّة عاداتها وتقاليدها الاجتماعيَّة ، وانتماءاتها الفكريَّة التي تُمَيِّزُها مِنْ غيرها .

وإذا كانت كُلّ جماعة تَقْتَرِبُ فيما بينها باشتراك أفرادها في العِرْق والجِنْس والقَومِيَّة أو أحدها ؛ فَإِنَّ الشُّعَرَاء أَولَى بهذا القُرْب ؛ فَكُلُّهُمْ مَشْغُولُونَ بهُمُوم مُتَشَابِهَة إِنْ لَمْ تكن واحدة , وذلك لا يُنَاقِضُ استقلالهم بطبيعة الحال , بل على العكس من ذلك , « إِنَّ المَرْءَ بِحَاجَةٍ إلى هُوِيَّة لكي يشعر بأنه حُرّ في التخلُّص منها » [2] ، وأقبح مِنْ أَنْ تكون للمرء هُوِيَّة يكرهها ويرجو الخلاص منها ، ألا تكون له هُوِيَّة على الإطلاق .

إِنَّ الإنسان يتأثر بالأرض والوطن والمكان الذي يعيش فيه , بطريقة لا إراديّة في أغلب الأحيان , إِمَّا وِجْدَانيًّا (وطنيًّا) , وإِمَّا بِيئيًّا (العادات , والمُؤَثِّرَات

---

(1) المصدر نفسه , 1/ 244 – 245 .

(2) تيري إيجلتون : فكرة الثقافة , ترجمة شوقي جلال , مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب , القاهرة ، 2012م , ص 91 .

الخَارِجِيَّة المُحِيطَة) ؛ لذلك ينذُر أَنْ نَجِدَ أدبًا فِلَسْطِينيًّا – مثلاً – لا يقوم على المقاومة والنضال , بأية صورة .

ويَزْدَادُ الأَمْرُ وضوحًا في اللغة والتراث الثقافيّ ؛ فَهُمَا من أهم المُقَوِّمَات التي تَقُوم عليها هُوِيَّة جماعة ما , وعلى الأخصّ الأدباء منهم .

إنَّ القضيَّة المركزيَّة الخاصَّة بالوجود في لحظة تاريخيَّة ، ليست أقل من العِرْق , والأرض ؛ فمِنْ متطلبات الهُوِيَّة في النص الأدبيّ – والإبداعيّ عُمُومًا – رصد تحليليّ للعصر الذي يعيش فيه المُبْدِع , مُعَبِّرًا عنه – بوعي منه أو دون وعي – فلا يُذْكَر عصر فرنسا الرومانسيّ , إلا وَرَدَتْ أشعار فيكتور هوجو (Victor Hugo) في الأذهان , وما دانتى (Dante) إلا مرآة عصر النهضة الحديثة ؟ كذلك فِعْل إيفان تورجنيف الروسيّ الذي كان لسان حال روسيا الناهضة على استحياء وقتذاك , المُتَذَبْذِبَة بين الشرق والغرب , يتضح ذلك في رِوَايَاته , وعلى الأخص رواية (دُخَان) ، ونجد الأمر نفسه عند نجيب محفوظ (ت2006م) , الذي كان بمنزلة المُؤَرِّخ لعُهُود مِصْر قبل الثورة , وثلاثيته خير دليل على ذلك .

والأدب فَنٌّ لُغَوِيّ ، ولا يعني ذلك أن الشاعر – والأديب عُمُومًا – مُؤَرِّخ ؛ ذلك أن الشاعر مادته العاطفة ، يُصَوِّرُهَا كما يَرُوقُ له ، والمُؤَرِّخ مادته الحقائق الواقعيَّة ، يلتزم بنقلها بصورة مُطَابِقَة للتاريخ .

فليس بغريبٍ أَنْ نَجِدَ شعراءنا يُمَثِّلُونَ في أشعارهم الهُوِيَّة المِصْرِيَّة ، بوصفها خليطًا من عناصر مختلفة وديانات مُتَعَدِّدَة .

أَوَّلاً : اللُّغَة :

دَخَلَت اللُّغَة العَرَبِيَّة مِصْر بالفتح الإسلاميّ ؛ فَلَمْ تَكُن العَرَبِيَّة لُغَةَ مِصْر ، وقد بَقِيَتْ اللُّغَة عَلَى قَيدِ التَّعَلُّمِ أَكْثَر مِنْ ثَلاثة قُرُون ، تَوَاصَلَ بِهَا القَوم ، ولَكِنَّها لَمْ تَكُنْ لُغَةَ الإِحْسَاس وَالانْفِعَال وَالتَّعْبِير عَن العَاطِفَة وَالفِكْر ؛ فَكَانَت اللُّغَة تَعَلُّمًا وَاكْتِسَابًا وَلَيسَتْ سَلِيقَة ، وليس أدلَّ على هذا مِمَّا نَجِدَهُ في مستوى الشعر المصري في العهد الطولونيّ والإخشيديّ ، إلى العصر الفاطميّ .

وظَلَّت اللُّغَة العَرَبِيَّة تنمو على مستوى التعلُّم ، والتَّسَلُّل لِلفِكْر والوِجْدَان ، ومِنْ أَهَم أَسْبَاب نُمُوّ العَرَبِيَّة فِي الوِجْدَان المِصْرِيّ احْتِكَاك المِصْرِيِّينَ بِالشُّعَرَاء الوَافِدِينَ مِنَ المَشْرِق والمَغْرِب ؛ فَقَدْ جَاءَتِ الدَّولَة الفَاطِمِيَّة بِشُعَرَائِهَا ، وَكَانَتْ مَحَطَّ أَنْظَارِ الشُّعَرَاء المُشَارِقَة ؛ إِذْ تَوَافَدُوا عَلَى مِصْرَ ؛ سَعْيًا للعَطَايا وَالهِبَات ، التِي أَسْرَفَ الخُلَفَاءُ الفَاطِمِيُّونَ فِي بَذْلِهَا ، وَقَدْ كَانَ من آثار ذلك أنْ دخل الشعراء المصريون في مَحَكَّات مُنَافَسَة غير مُتَكَافِئَة ، ولكنها أفادت في صَقْل اللُّغَّة الشِّعْرِيَّة ؛ فقليلٌ هُمْ الشُّعَرَاءُ الذين يُذْكَرُونَ في القرنينِ الخامس والسادس الهِجْرِيَّينِ ، ولكنهم مَثَّلُوا تَمَكُّن العربية من الوِجْدَان المِصْرِيّ .

فاللُّغَة ظاهرة ثقافيَّة تؤدي دورًا في التَّطَوُّر التاريخيّ وتأكيد الهُوِيَّة القَومِيَّة ؛ إنها من أهم الملامح التي ترتكز عليها الهُوِيَّة وترتبط بها ؛ لأنَّ أَفْرَادَ الأُمَّة يَجْتَمِعُونَ عليها ، ويُفَكِّرُونَ بها ، بصفتها وسيلةً إلى الوحدة اللُّغَوِيَّة ، وأداةً لتوسيع الفكر ، وطريقًا لترسيخ الانتماء الثقافيّ ، وسبيلاً للإبداع الفكريّ وتَبَادُل الأفكار ؛ فهي « رمزٌ للمجتمع العربيّ ، وأداة تفاعل وتواصل ، وطريقة في التفكير والتعبير ، ونمط من الجمال ، وفوق هذا كله هي قضية اجتماعيَّة حضاريَّة ، ذات علاقة وثيقة بِكُلِّ مِنْ هُوِيَّة الأُمَّة وشَخْصِية المُوَاطن وتَمَايُزها ، ومِنْ ثَمَّ فهي عامل حاكم في تقوية الانتماء والولاء لدى هذا المُوَاطِن » [1] .

وتظهر أهميتها القُصْوَى بالنظر إلى « الوظائف التي تُؤَدِّيهَا في سياقها الاجتماعيّ ، والتاريخيّ ، والسياسيّ ، والثقافيّ ، واللغويّ » [2] ، إنَّ اللُّغَة « أعظم اختراع قام به الفرد ... فوظيفة اللغة إشباع رغبات الفرد ، والتعبير عن

---

(1) جامعة الدول العربية : الإستراتيجية العربية للتنمية الاجتماعية الشاملة ؛ الدراسة الأساسية ، الإدارة العامة للشؤون الاجتماعية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ، 1985م ، ص 144 .

(2) عز الدين صحراوي : اللغة العربية في الجزائر ؛ التاريخ والهوية ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة مُحَمَّد خيضر ، بسكرة ، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، جوان 2009م ، ص 2 .

الأفكار » [1] ؛ فَإِنَّ دَورَهَا لا يقتصر على كونها أداةً للتواصل بين أفراد المجتمع الواحد لقضاء الحوائج ، على حد تعبير ابن جِنِّي (ت392هـ) – في باب (القول على اللغة وما هي) – : « أَمَّا حَدُّهَا ؛ فإنها أصواتٌ يُعَبِّرُ بها كُلُّ قَومٍ عَنْ أَغْرَاضِهِمْ » [2] .

إِنَّ لِلغُة العربية دَورًا كبيرًا في توحيد الأُمَّة العربيَّة ، والمحافظة على الشخصيَّة العربيَّة بملامحها المُمَيِّزَة لها ؛ لكونها « أخطر بكثير من أن تَكُون مُجَرَّد أصوات وأدوات للتفاهم أو لتبليغ صورة أو فكرة مُعَيَّنة ، إن اللغة جوهر الفكر ومَاهِيَّته ، وهي في نظر علماء الاجتماع أهم عامل مُسَاعِد على نشأة الحضارة الإنسانيَّة » [3] ، فَضْلاً عَنْ كَونِهَا وسيلة تعبيريَّة يَتَمَيَّزُ بها الكائن البشري (الإنسان) دُونَ سِوَاه من المخلوقات الأخرى [4] .

ونَخْلُصُ مِمَّا سَبَقَ إلى أن « هُنَاك رَوَابِط وَثِيقَة بين اللُّغَة والهُوِيَّة ، بحيث إن أي تغيير يَمَسُّ أحدهما ينعكس على الآخر » [5] .

وقد تَحَدَّثَ أحمد شوقي عن اللغة العربية – في أرجوزته (دول العرب وعظماء الإسلام) – بوصفها لُغَة العَرَب التي استوعبت مُخْتَلَف الأقطار ؛ فهي لِسَان القَوم ، ولُغَة الوَحْي ، وسَبِيل المَجْد ، وعَون المُصْلِحِينَ ، يقول :

وَرُبَّ شَعْبٍ نَالَ مَجْدًا بِاللُّغَهْ لَمْ يَبْلُـغِ الأَقْوَامُ مِنْهُ مَبْلَغَهْ

---

(1) نوال محمد عطية : علم النفس اللغوي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1975م ، ص21 .

(2) ابن جني : الخَصَائِصُ ، تحقيق مُحَمَّد عَلِي النَّجَّار ، دار الكُتُب المِصْرِيَّة ، القاهرة ، 1371هـ - 1952م ، 33/1 .

(3) عبد السلام المسدي وآخرون : اللسانيات في خدمة اللغة العربية ، المطبعة العصرية ، تونس ، 1983م ، ص 9 .

(4) انظر : أحمد درويش : إِنْقَاذ اللُّغَة إِنْقَاذ الهُوِيَّة ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2018م ، ص 16 .

(5) محمد نافع العشيري : مفهوم اللغة ومفهوم الهوية ومظاهر التفاعل ، ص 248 .

ظَلَّتْ تُعِينُ المُصْلِحِينَ الضَّادُ وَظَلَّ لِلعِلْمِ بِهَا اعْتِضَادُ

تَوَطَّنَتْ مُخْتَلِفَ البِلادِ وَاحِدَةَ المَغْرِسِ وَالمِيلادِ [1]

لقد وَحَّدَتْ اللُّغَة العربية بين المَمَالِك وحدةً ثقافيَّة , فضلاً عن وحدة العقيدة , يقول في ختام قصيدته (على سفح الأهرام) :

إِنَّ الذِي مَلأَ اللُّغَّاتِ مَحَاسِنًا جَعَلَ الجَمَالَ وَسِرَّهُ فِي الضَّادِ [2]

وهو شديد التَّعَصُّب للغة العربيَّة « حَرِيصٌ على أن تأخذ مكانها بين أرقى لُغَات الأَرْض ؛ فإنه يراها لُغَةً تَتَّسِعُ لِكُلِّ صُورَةٍ وكل فكرة وكل معنى وكل خيال ... وهو مُجَدِّد في اللغة لفظًا ومعنًى ومبنًى ؛ لأنه يراها – كما يرى كل الوجود – كِيَانًا حَيًّا يجري عليه ما يجري على الأحياء » [3] .

إنه يعترف بأهمية اللُّغَّة في جعل الأديب لسان أُمَّتِه , وعلى وجه الخصوص اللغة العربيَّة ، التي قامت في الإمبراطورية الإسلاميَّة بالدور نفسه الذي قامت به اللاتينيَّة في توحيد العالم الأُورُبِّيّ قديمًا .

ثَانِيًا : التَّارِيخُ :

لا شك في أن من روافد الهُوِيَّة المِصْرِيَّة عند شوقي التاريخ ؛ فقد عَدَّهُ مع الطبيعة أَبَوَي الشِّعْر [4] ، وصَرَّحَ بِأَنَّ (مَوقِف التاريخِ مِن فَوقِ الهَوى) [5] ؛ وجعل للتاريخ (الحُكمُ في الآراءِ) [6] ؛ فإنه لا بُدَّ من الالتفات إلى الماضي لأخذ

---

(1) أحمد شوقي : دول العرب وعظماء الإسلام ، ص 8 ، 10 .

(2) أحمد شوقي : الشوقيات , 1/ 116 .

(3) أحمد عبد المجيد : أحمد شوقي الشاعر الإنسان ، ص 18 .

(4) قال - في تقديم قصيدته (رومة) - لصديقه المُؤَرِّخ إسماعيل بك رأفت : « الشعر ابن أَبَوَينِ : التاريخ ، والطبيعة » . أحمد شوقي : الشوقيات ، 250/1.

(5) صدر بيت ، وعجزه : (وَمَقامُ المَوتِ مِن فَوقِ الهَذَر) . المصدر السابق ، 160/2.

(6) تمام البيت : نَقَموا عَلَيهِ رَأيَهُ وَصَنيعَهُ وَالحُكمُ لِلتاريخِ في الآراءِ . المصدر نفسه ، 6/3.

العِبْرَة والعِظَة ؛ وفَهْم الحِكَم المُسْتَفَادَة ، يقول في ختام قصيدته (الرِّحْلَة إِلَى الأَنْدَلُس) :

وَإِذَا فَاتَكَ التفَاتٌ إِلَى المَا ضِي فَقَدْ غَابَ عَنْكَ وَجْهُ التَّأَسِّي (1)

إن شوقي مِنْ الرجال الذين صَنَعُوا التاريخ ، وقد ألحَّ على هذا المعنى في شعره ، ونَصَّ عَلَى أَنَّهُ لِسَان مِصْر المُعَبِّر عن تاريخها في قصيدة (أَنَس الوُجُود) – التي وَجَّهَهَا إلى المستر روزفلت الرئيس الأسبق للولايات المتحدة – في قوله :

وَأَنَا المُحْتَفِي بِتَارِيخِ مِصْرٍ مَنْ يَصُنْ مَجْدَ قَومِهِ صَانَ عِرْضَا (2)

وقد تَحَدَّثَ عن التاريخ – في أرجوزته (دُوَل العَرَب وعُظَمَاء الإِسْلام) – بوصفه ظِلّ العَالَم ، ووسيلة الخلود ودَوَام الذِّكْر لمآثر الأبطال وفتوحاتهم ، يقول :

أَلَمْ يَكُ التَّارِيخُ ظِلَّ العَالَمِ وَأَقْدَمَ الأَعْلامِ وَالمَعَالِمِ ؟
تَوَهَّمَ الخُلْدَ بِهِ الأَوَائِلُ وَظَنَّ أَنْ نَالَ البَقَاءَ الزَّائِلُ
وَطُلِبَ الصِّيتُ بِهِ قَدِيمَا وَالذِّكْرُ فَوقَ الأَرْضِ مُسْتَدِيمَا
وَالنَّفْسُ تَرْجُو هِمَّةَ الخُلُودِ فِي العِلْمِ وَالبُنْيَانِ وَالمَولُودِ (3)

ويقول في قصيدته (تُوت عَنْخ آمُون) :

وَآثَارُ الرِّجَالِ إِذَا تَنَاهَتْ إِلَى التَّارِيخِ خَيرُ الحَاكِمِينَا (4)

وقد كَتَبَ بابًا سَمَّاهُ جامع ديوانه محمد حسين هيكل (السياسة والتاريخ والاجتماع) ، وسَمَّى أوَّل قصائده (كِبَار الحَوَادِث فِي وَادِي النِّيلِ) (5) .

---

(1) المصدر نفسه , 2/ 52 .

(2) أحمد شوقي : الشوقيات ، 2/ 58 .

(3) أحمد شوقي : دول العرب وعظماء الإسلام ، ص 13 .

(4) أحمد شوقي : الشوقيات ، 268/1 .

(5) انظر : المصدر السابق ، 17/1 – 33 .

وأشار في مطلع قصيدته (انتصار الأتراك في الحرب والسياسة) إلى البطل المِغْوَار خالد بن الوليد ، يقول :

اللهُ أَكْبَرُ ، كَمْ فِي الفَتْحِ مِنْ عَجَبِ

يَا خَالِدَ التُّرْكِ جَدِّدْ خَالِدَ العَرَبِ [1]

لقد آمن شوقي بأن التاريخ يصنعه الأبطال ، ويَقُودُهُ العُظَمَاء ، يقول في قصيدته (على قبر نابليون) :

يَصْلُحُ المُلْكُ عَلَى طَائِفَةٍ هُمْ جَمَالُ الأَرْضِ حِينًا بَعْدَ حِين [2]

وهذه الطائفة بها يَصْلُح المُلْك ، وتَسْتَقِيم أُمُور النَّاس ؛ فَهُمُ الهُدَاة ، الذين يجب علينا الاقتداء بهم .

والمُلاحَظ أن شوقي إنما اختار لنفسه هذا الدور التاريخيّ , القوميّ ، عن وَعْي ؛ فقد وَقَّفَ شِعْرَهُ من أجل خِدْمَة نَزْعَتِهِ الغيريَّة , الواقعيَّة الاجتماعيَّة ، تلك الواقعيَّة التي « لا تخرج في قُصَارَاها عن الاحتفاء بواقع العصر والبيئة ؛ فأسهم بشعره في مشاكل السياسة , والاجتماع , من خلال قصائد المدح التي اعتادها الناس على ذلك العهد ، والتي كانت تفرض نفسها على الشعر ؛ لأنَّ الشِّعْرَ كان مَعْدُودًا من وَسَائِل الدِّعَايَة , ومظهرًا من مظاهر ولاء الأُمَّة على لسان شعرائها » [3] .

فقد كان شوقي ذا طُمُوحٍ عظيم غَلاَّب – كما يقول أحمد عبد المعطى حجازي – يدفعه إلى مُنَاضَلَة سَلِيقَته لِيُمَثِّل الدور الذي قَرَّرَ أن يُؤَدِّيه , وهو أن يُوَظِّفَ موهبته الكبيرة في خِدْمَة عصره [4] .

---

(1) المصدر نفسه , 1/ 59 .

(2) المصدر نفسه , 1/ 256 .

(3) حلمي علي مرزوق : تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في الربع الأول من القرن العشرين ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت , 1981م , ص 129.

(4) أحمد عبد المعطى حجازي : قصيدة لا ؛ قراءة في شعر التمرُّد والخروج , مركز الأهرام للترجمة والنشر , القاهرة ، ط1 ، 1989م , ص 150.

فالرومانتيكية ، وهي نِتَاج الحضارة الغربيَّة , لا تُنَاسِب شوقي ؛ لطبيعته الاجتماعيَّة التي تنأى بموهبته إلا أن تندمج في واقع حياتها , ومن ثَمَّ فقد فَرَضَ الواقع العربيّ المصريّ عليه فلسفته في القول , وذلك هو جوهر كلاسيكيته «الشاخصة إلى الخيال والعاطفة , يريد أن يُوَازِنَ بينها كما هو عند الرومان ؛ فالوعي هنا قَائِم في شوقي , يُصَرِّفُ به الموهبة كيف شاء ؛ ليشارك الناس في خيرها ... ويقضي حقّ الله عليه في أَمْرِهَا , ولا يكون ذلك إلا بتوظيف موهبته في قضايا قومه , ومطالب مجتمعه , وقِيَم حضارته , وهو في ذلك على الضِدِّ والخلاف مِن المُنْطَلِقِينَ وراء اللاوعي » [1] .

ومن الأمور التي ساعدته على القيام بهذا الدور – إلى جانب استعداده الفطريّ – طبيعة عصره ؛ فقد وُلِدَ بعد عِدَّة عُقُود تَبِعَتْ الحملة الفرنسيَّة على مصر , ذلك العصر الذي حَصَدَ ثِمَار تلك النَّقْلَة الحَضَاريَّة , حين جاء نابليون بونابرت غازيًا ؛ فبقدر ما كانت الحملة عسكريَّة , كانت ثقافيَّة , كَشَفَتْ للمصريين أن ثَمَّةَ ما يُغَايِرُهم , وأن أطياف كهفهم ليست كل العالم .

وفي غمرة هذا السياق العقليّ في النظر والبحث ، جاء شوقي لِيُسْهِمَ بشعره في قضايا العصر يومئذٍ , وقد أخذ على عاتقه – بمنطقه الشعريّ الرحيب – أن يكونَ لِسَانَ مِصْر المُعَبِّر عن هُوِيَّتها المتعددة الأبعاد والآفاق .

وأوَّل ما يلفت النظر تعبيره عن الجانب الإسلاميّ العربيّ , وهو أحد أهمّ أعمدة الهُوِيَّة المصريَّة , التي سَطَعَتْ بنسقها الفِكْريّ , ولُغَتها العربيَّة , إنها الهُوِيَّة التي استحوذت على جُلّ اهتمامه ؛ لأنها مرتبطة بواقع الحياة وقتئذٍ .

المَبْحَثُ الثَّانِي : أَنْمَاطُ الهُوِيَّة المِصْرِيَّة عِنْدَ شَوقِي :

أَوَّلاً : هُوِيَّة إِسْلامِيَّة :

---

(1) حلمي علي مرزوق : شوقي وقضايا العصر والحضارة , ص 235 .

تقوم على الدين الإسلاميّ ، وهي عربيَّة في صميمها ، تَضُمُّ التراث العربيّ من الشعر وغيره . إنه يَهْتَمُّ بالإسلام دِينًا وخُلُقًا ، يقول عن الرسول (ﷺ) في (الهَمْزِيَّة النبويَّة) :

بِكَ يَابْنَ عَبْدَ اللهِ قَامَتْ سَمْحَةٌ بِالحَقِّ مِنْ مِلَلِ الهُدَى غَرَّاءُ
وَمَشَى عَلَى وَجْهِ الزَّمَانِ بِنُورِهَا كُهَّانُ وَادِي النِّيلِ وَالعُرَفَاءُ
اللَّهُ فَوقَ الخَلْقِ فِيهَا وَحْدَهُ وَالنَّاسُ تَحْتَ لِوَائِهَا أَكْفَاءُ
وَالدِّينُ يُسْرٌ ، وَالخِلافَةُ بَيعَةٌ وَالأَمْرُ شُورَى ، وَالحُقُوقُ قَضَاءُ
الإِشْتِرَاكِيُونَ أَنْتَ إِمَامُهُمْ لَولا دَعَاوَى القَومِ وَالغُلْوَاءُ (1)

إلى آخر تلك المعاني التي تَزْخَرُ بها القصيدة ؛ غير أن الأبيات تُرَكِّزُ على رَبْط مِصْر بقيام الشَّرِيعَة ، ورَبْط الشَّرِيعَة بِصِفَةِ السَّمَاحَة ، ومن هنا نستبين أن استحضار مِصْر بِذِكْرِ كُهَّان وَادِي النِّيل لم يكن عبثًا ولا مُصَادَفَةً ، ولكنها رُؤيَة شَوقي النَّافِذَة إلى المَلامِح الحَضَارِيَّة المِصْرِيَّة العريقة ، وتَبَدُّل مَوقِفِهَا ليسير كُهَّان وادي النيل عَلَى وَفْقِ الشَّرِيعَة المُحَمَّدِيَّة شريعة الإسلام .

وقد ربط شوقي بين مصر والقِيَم الإسلامية من زاوية إنصاف الإسلام للمرأة ؛ فأَقرّ أَنَّ الإِسْلامَ قد أَعْطَى المَرْأَةَ المَكَانَةَ اللائِقَة بها ، ورَفَعَ مِنْ قَدْرِهَا ، وسَاوَى بَينَهَا وَبَينَ الرَّجُل فِي الحُقُوقِ وَالوَاجِبَات ، وقَرَنَ هذه المعاني بواقع المرأة المِصْرِيَّة التي اتخذت طريقًا للحضارة لا ينفصل عن الجُذُور الدينيَّة التي حَدَّدَهَا شوقي بحضارة الإسلام ؛ إذ يقول في قصيدته (مِصْر تُجَدِّد نَفْسَهَا بِنِسَائِهَا المُتَجَدِّدَات) :

وَحَضارَةُ الإِسلامِ تَنْـ طِقُ عَنْ مَكَانِ المُسْلِمَاتِ (2)

ونرى الهُوِيَّة الإِسْلامِيَّة في قصيدته (الأزهر) ، التي قالها بمناسبة إصلاح الأزهر الشريف ، يقول :

---

(1) أحمد شوقي : الشوقيات , 1/ 38 .

(2) أحمد شوقي : الشوقيات , 1/ 103 .

يَا مَعْهَدًا أَفْنَى القُرُونَ جِدَارُهُ وَطَوَى اللَّيَالِي رُكْنُهُ وَالأَعْصُرَا
وَمَشَى عَلَى يَبَسِ المَشَارِقِ نُورُهُ وَأَضَاءَ أَبْيَضَ لُجّهَا وَالأَحْمَرَا
وَأَتَى الزَّمَانُ عَلَيهِ يَحْمِي سُنَّةً وَيَذُودُ عَنْ نُسُكٍ ، وَيَمْنَعُ مَشْعَرَا
فِي الفَاطِمِيينَ انْتَمَى يَنْبُوعُهُ عَذْبَ الأُصُولِ كَجَدِّهِمْ مُتَفَجِّرَا
عَينٌ مِنَ الفُرْقَانِ فَاضَ نَمِيرُهَا وَحَيًا مِنَ الفُصْحَى جَرَى وَتَحَدَّرَا (1)

إنه يُمَجِّدُ الأزهر بوصفه مَعْقِلاً دينيًّا , وتُرَاثًا معرفيًّا إسلاميًّا , وتكشف الأبيات – في جلاءٍ – عن خَاصِيَّة التَّسَامُح الدِّينِيّ والمَذْهَبِيّ فِي السُّلُوك الحَضَارِيّ الغَالِب عَلَى المِصْرِيينَ ؛ فبينما جَعَلَ الأَزْهَرَ في البيت الثالث من هذه الأبيات يَحْمِي السُّنَّة ، بمفهومها الدينيّ العام ، أو بمفهومها المَذْهَبِيّ الذي يَعْنِي السُّنَّة في مُقَابِل مذاهب أُخْرَى ، نجده في البيت الرابع يُشِيرُ – في وُضُوحٍ – إلى بُنَاة الأَزْهَر مِن الفَاطِمِيّينَ بِمَذْهَبِهِمْ الشِّيعِيّ المَعْرُوف ؛ فالجمع بين ذِكْر السُّنَّة والشِّيعَة يُبَيِّنُ وَعْيًا حَضَارِيًّا مِصْرِيًّا بِقِيَم التَّسامُح وقَبُول الآخر .

وقد كان من أثر الهُوِيَّة الإِسْلامِيَّة عند شوقي أن رأى في الأسطول العُثْمَانِيّ موضع فخر وابتهاج ، لا لنسبته إلى تركيا ، ولكن لنسبته إلى الإسلام ، يقول في قصيدة (الأُسْطُول العُثْمَانِيّ) :

هَزَّ اللِّوَاءُ بِعِزّكَ الإِسْلامُ وَعَنَتْ لِقَائِمِ سَيفِكَ الأَيّامُ
يَا مَعْشَرَ الإِسْلامِ فِي أُسْطُولِكُمْ عِزٌّ لَكُمْ وَوِقَايَةٌ وَسَلامُ (2)

ويقول في قصيدة (ضيف أمير المؤمنين) :

رَضِيَ المُسْلِمُونَ وَالإِسْلامُ فَرْعَ عُثْمَانَ ، دُمْ ، فِدَاكَ الدَّوَامُ
أَيُّهَا النَّافِرُونَ عُودُوا إِلَينَا وَلِجُوا البَابَ إِنَّهُ الإِسْلامُ (3)

وكأن الجيش العثماني الذي رأى فيه غير واحدٍ من الكتَّاب احتلالاً يرى فيه شوقي بنوازِعِ الهُوِيَّةِ الدِّينيَّة دعمًا إسلاميًّا ؛ فيَنْقَلِب الموقفُ – من وجهةِ نظره

---

(1) المصدر السابق , 1/ 151- 152 .
(2) أحمد شوقي : الشوقيات , 226/1 ، 230 .
(3) المصدر السابق , 239/1 ، 242 .

– من المقاومةِ إلى الدَّعوةِ الصَّريحَة للفتحِ ؛ فيُعقِّب على فِعْل الأَمْر (لِجُوا الباب) بتعليله بالجملة الخبرية الصَّارمة (إنَّهُ الإسلام) .

وتأسيسًا على رُوح التسامح الدينِيّ المِصْرِيَّة جاءت نظرته إلى الدستور العثمانيّ ؛ فواقعُ النَّسيجِ الاجتماعيّ المصريّ يَقْبَلُ التَّعَدُّدِية الدِّينِيَّة ، ولا يَتَنَكَّرُ لِلتَّعدُّدِيَّة المَذْهَبِيَّة ؛ فينطلق في تأييد الدستور العثمانيّ من مُنطلق التَّسامُحِ المُنْغَرِسِ في السَّجِيَّةِ المِصْرِيَّة ؛ فقد كَفَلَ الإسْلامُ لِلجَمِيعِ حُرِّيَّة الدِّين ، ولم يُجْبِرْ أَحَدًا على اعتناق الإسلام بالقُوَّة ؛ فالأمر كما يقول شوقي في قصيدته (الدستور العُثْمَانِيّ) :

الدِّينُ لِلَّهِ ، مَنْ شَاءَ الإِلَهُ هَدَى لِكُلِّ نَفْسٍ هَوَى فِي الدِّينِ دَاعِيهَا
مَا كَانَ مُخْتَلِفُ الأَدْيَانِ دَاعِيَةً إِلَى اخْتِلافِ البَرَايَا ، أَو تَعَادِيهَا
الكُتْبُ وَالرُّسْلُ ، وَالأَدْيَانُ قَاطِبَةً خَزَائِنُ الحِكْمَةِ الكُبْرَى لِوَاعِيهَا (1)

ويقول في قصيدته (تَحِيَّة للترك) ، مُخَاطِبًا فِتْيَة التُّرْك بأنهم غَدُ الإسلام الواعِدِ ، في استهلالٍ بتقريرٍ قاطعٍ يدُلُّ على مدى ثقتِهِ فيهِم :

أَنْتُمْ غَدُ المُلْكِ وَالإِسْلامِ ، لا بَرِحَا مِنْكُمْ بِخَيرِ غَدٍ فِي المَجْدِ مُبْتَسِمِ
تُحِلُّكُمْ مِصْرُ مِنْهَا فِي ضَمَائِرِهَا وَتُغْلِنُ الحُبَّ جَمًّا غَيرَ مُتَّهَمِ
فَنَحْنُ – إِنْ بَعُدَتْ دَارٌ وَإِنْ قَرُبَتْ –
جَارَانِ فِي الضَّادِ، أَو فِي البَيتِ وَالحَرَمِ
نَاهِيكَ بِالسَّبَبِ الشَّرْقِيّ مِنْ نَسَبٍ وَحَبَّذَا سَبَبُ الإِسْلامِ مِنْ رَحِمِ (2)

لَقَدْ أَبْصَرَ شَوقِي – بِنَظَرِهِ الثَّاقِب – حركة التاريخ ، ونظر إلى الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة نَظْرَةَ إِكْبَارٍ وتَعْظِيم ، وأراد لها أَنْ تَتَبَوَّأ مكانها اللائق بها من الصراع الحضاريّ .

---

(1) أحمد شوقي : الشوقيات , 1/ 289 .

(2) المصدر السابق , 1/ 225- 226 .

وقد جاءت قصيدته (بُطْرس بَاشَا غَالِي) شاهدًا جَلِيًّا على الطَّبيعة الدِّينِيَّة الخاصَّة للشخصيَّة المِصْرِيَّة التي تَسْمَح بالتَّعدديَّة ؛ فقد رَدَّدَ شوقي مَعَانِي التَّسَامُح والمُبَرِّرَات الدينيَّة لِقَبُول الآخر في هذه القصيدة ، وبَنَى حُجَّتَه على الإيمان بقُدْرَةِ الله (تعالى) على توحيدِ الأقوام ، وتأليفِ القلوبِ بمشيئتِهِ ، يقول فيها :

الدِّينُ لِلدَّيَّانِ جَلَّ جَلالُهُ لَو شَاءَ رَبُّكَ وَحَّدَ الأَقْوَامَا [1]

فيضربُ شوقي بهذه الرُّؤيَةِ مثلاً في التَّسامُح وقَبُول الآخر ، الذي يُعَدُّ سِمَةً أساسيَّة في الهُوِيَّة الدينيَّة المِصْرِيَّة .

ثَانِيًا : هُوِيَّة سِيَاسِيَّة :

على الرغم مِمَّا تَقَدَّمَ مِنْ رَبْطِ مَوقف شَوقي مِنَ العُثْمانِيينَ بِقَضِيَّة التَّسامُحِ الدينيّ ، الذي يُعَدُّ مِنْ ثوابتِ الشخصيَّةِ المِصْرِيَّة ؛ فَإِنَّ هذا لا ينفي ولاء شوقي المعروف للأتراك ، ومن هنا تلتبس الهُوِيَّة الدِّينيَّة بالمواقف السِّياسِيَّة والعِرْقِيَّة التي أظهرت من شوقي وَلاءً فِطْرِيًّا لِلعُثْمَانِيِينَ ؛ إِذْ يُعَدُّ عُثْمَانِيَّ الهَوَى وَلا جِدَال [2] ؛ فغيرُ خافٍ أَنَّ شوقي وإِنْ كان مِصْرِيًّا ؛ فهو تركيّ وشركسيّ الآباء والأجداد ؛ ورُبَّمَا لِذَلك أَخَذَ عليه بَعْضُهُمْ هذا الولاء ؛ فرموه بالتعصُّب لعِرْقِه غير المِصْرِيّ .

لقد اُتُّهِمَ شوقي بأنه مُحِبٌّ للأتراك ، يهتف بأمجادهم ومآثرهم ، ولم يتنصل مِنْ هَذِا الاتهام ، بل أقره ، وقَدَّمَ عُذْرَهُ في ذلك ؛ فقد تَمَسَّكُوا بالإسلام ؛ مِمَّا قَرَّبَهُمْ من نفوس الناس ، ولم ينفرد – وحده – بهذا الشعور ، بل شاركه فيه كثير ، وهذا يؤكد التَّضَافُر بَينَ المَوقِف السِّيَاسِي والمَوقف الدِّينِيّ ، يقول :

حَتَّى اُتُّهِمْتُ ؛ فَقِيلَ : تُرْكِيُّ الهَوَى صَدَقُوا ، هَوَى الأَبْطَالِ مِلْءُ فُؤَادِي
وَأَخِي القَرِيب ، وَإِنْ شُقِيتُ بِظُلْمِهِ أَدْنَى إِلَيَّ مِنَ الغَرِيبِ العَادِي

---

(1) المصدر نفسه , 3/ 145.

(2) انظر : حلمي علي مرزوق : شوقي وقضايا العصر والحضارة , ص 7 .

اللهُ يَعْلَمُ مَا انْفَرَدْتُ ، وَإِنَّمَا صَوَّرْتُ شِعْرِي مِنْ شُعُورِ الوَادِي[1]

لقد كان مَدْحُهُ للعثمانيين مدحًا للفتوح الإسلاميَّة , والإسلام رُكْنٌ عظيم الشأن في الهُوِيَّة المِصْرِيَّة , ومَعْلُومٌ أن دعوة (مِصْرَ لِلمِصْرِيِينَ) كانت وقتئذٍ خافتة الصدى لدى المِصْرِيينَ , وأَنَّ مِصْرَ الإسلاميَّة بوصفها جزءًا من الكِيان العثمانيّ كانت الدعوى الأقوى , بل كانت دِرْعًا في وَجْه الاحتلال الإنجليزيّ , عند مصطفى كامل , وأحمد شوقي , وغيرهما .

فمواقفه تَقُومُ على الولاء العثمانيّ الشَّديد ، المُضَفَّر بِالبُعْد الدِّينيّ ، الذي جاء بِمَنْزِلَة تَسْوِيغٍ لِلموقف الانتمائيّ ، كما نرى في قصيدته (صَدَى الحَرْب) ، يقول :

وَما زَالَ فَجْرًا سَيفُ عُثْمَانَ صَادِقًا يُسَارِيهِ مِنْ عَالِي ذَكَائِكَ كَوكَبُ
إِذَا مَا صَدَعْتَ الحَادِثَاتِ بِحَدِّهِ تَكَشَّفَ دَاجِي الخَطْبِ، وَانْجَابَ غَيهَبُ
وَهَابَ العِدَى فِيهِ خِلافَتِكَ التِي لَهُمْ مَأْرَبٌ فِيهَا وَللهِ مَأْرَبُ[2]

فالحديث هنا عن الخلافة بِبُعْدِهَا الدِّينيّ المُلْتَبِّس بالسياسيّ كما ذكرنا ، وقد سار على النَّهْجِ نَفْسه في قصيدته (تَحِيَّة للتُّرْك) ، التي يقول فيها :

الدَّهْرُ يَقْظَانُ ، وَالأَحْدَاثُ لَمْ تَنَمِ فَمَا رُقَادُكُمْ يَا أَشْرَفَ الأُمَمِ ؟
لَقَدْ فَتَحْتُمْ فَأَعْرَضْتُمْ عَلَى شِبَعٍ وَالفَتْحُ يَعْتَرِضُ الدَّولاتِ بِالتُّخَمِ
يَا فِتْيَةَ التُّرْكِ ، حَيَّا اللهُ طَلْعَتَكُمْ وَصَانَكُمْ ، وَهَدَاكُمْ صَادِقَ الخِدَمِ
فَلا تَكُونُنَّ (تُرْكِيَا الفَتَاةُ) ، وَلا تِلْكَ العَجُوزَ ، وَكُونُوا تُرْكِيَا القِدَمِ
فَسَيفُهَا سَيفُهَا فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ وَعَدْلُهَا طَوَّقَ الإِسْلامَ بِالنِّعَمِ [3]

والحقّ أنَّ هذا الموقف لا يُؤْخَذُ على إطلاقه ؛ فَلَمْ يخلُص شوقي إلى الانتماء التُّرْكِيّ بِبُعْدَيهِ : الدِّينيّ والسِّيَاسِيَّ ، ولكن هُوِيَّتَهُ المِصْرِيَّة كانت غالبة

---

(1) أحمد شوقي : الشوقيات المجهولة ؛ آثار شوقي التي لَمْ يُسْبَقْ كَشْفَها أو نَشْرَها ، جمع وترتيب محمد صبري ، دار المسيرة ، بيروت ، 1979م ، 201/2 .

(2) أحمد شوقي : الشوقيات , 42/1 .

(3) المصدر السابق , 1/ 225 – 226 .

ظاهرة ؛ فهو وإن أَعْلَنَ وَلاءَهُ للعثمانيينَ على هذا النحو ؛ فإنه يَنْطَلِقُ مِنْ منطلق سياسيّ ، وليس عِرْقِيًّا ؛ فَقَدْ رَأَى العثمانيين يَحْمُون الإسلام ، ويجاهدونَ في سبيل نُصْرَتِهِ ، ويُمَثِّلُونَ السياسة الإسلاميَّة ، « وما اصطلاح (العثمانيين) الذي اختاروه لأنفسهم نسبًا يُعرفون به ، إلا شاهد عدل على استمساكهم بآصرة الإسلام ، أرادوا به أن يقتلوا النَّعْرَة العصبيَّة القوميَّة أو العُنْجُهِيَّة (الطورانيَّة) التي كانت وبالاً على الوحدة الإسلاميَّة في العصر الحديث » [1] .

وشعر شوقي يوضح ذلك المقصد ؛ فهو في مَدْحِهِمْ لا يمدح جِنْسَهُمْ بقدر ما يُمَجِّدُ أفعالهم التي يُكَبِّرُهَا ، والتي يربطها الربط الذي اعتاده بالهُوِيَّة الدينيَّة الإسلاميَّة ، كما نرى في قصيدته (انتصار الأتراك في الحرب والسياسة) :

تَحِيَّةً – أَيُّهَا الغَازِي – وَتَهْنِئَةً ... بِآيَـةِ الفَتْحِ تَبْقَى آيَـةَ الحِقَبِ
وَقَيْمًا مِنْ ثَنَـاءٍ ، لا كِفَاءَ لَـهُ ... إِلاَّ التَّعَجُّبُ مِنْ أَصْحَابِكَ النُّجُبِ
الصَّابِرُونَ إِذَا حَلَّ البَلاءُ بِهِمْ ... كَاللَّيْثِ عَضَّ عَلَى نَابَيهِ فِي النُّوَبِ
وَالجَاعِلِينَ سُيُوفَ الهِنْدِ أَلْسِنَهُمْ ... وَالكَاتِبِينَ بِأَطْرَافِ القَنَـا السُّلُبِ
قُوَّادُ مَعْرَكَـةٍ ، رُوَّادُ مَهْلَكَـةٍ ... أَوتَادُ مَمْلَكَـةٍ , آسَادُ مُحْتَرِبِ[2]

إنهم يُمَثِّلُونَ لديه الدِّرْع الذي يذود عن الدِّينِ الذي ينتمي إليه , ويُكَبِّرُ أَمْرَهُ , بوصفه شاعرًا قوميًّا ، وقد نَظَمَ قصيدته (الأُسْطُول العُثْمَانِيّ) حين شاهد البارجتين اللتين اشترتهما الدولة العُثْمَانِيَّة مِنْ ألمانيا ؛ فأخذته هِزَّة الطَّرَب ، وعزَّ عليه أن يرى المسلمين في أقطار الأرض مُتَقَاعِسِينَ عن إعانة أُسْطُول الدولة ؛ لذا مَدَحَهُمْ وفي مُخَيِّلَتِهِ التاريخ الإسلاميّ الذي حَمَلَهُ أجدادهم على عاتقهم ، يقول :

هَزَّ اللِّوَاءَ بِعِزِّكَ الإِسْلامُ ... وَعَنَتْ لِقَائِمِ سَيفِكَ الأَيَّامُ

---

(1) حلمي علي مرزوق : شوقي وقضايا العصر والحضارة , ص 68.

(2) أحمد شوقي : الشوقيات , 1/ 63 .

وَانْقَادَتِ الدُّنْيَا إِلَيكَ فَحَسْبُهَا عُذْرًا قِيَادٌ أَسْلَسَتْ وَزِمَامُ

البَحْرُ مَحْشُودُ البَوَارِجِ دُونَهُ وَالبَرُّ تَحْتَ ظِلالِهِ آجَامُ

وَالدِّينُ لَيسَ بِرَافِعٍ مُلْكًا إِذَا لَمْ يَبْدُ لِلدُّنْيَا عَلَيهِ نِظَامُ (1)

ولكنه يُوَبِّخُهُمْ إذا أحسَّ تقصيرًا , يقول في قصيدته (الأَنْدَلُس الجَدِيدة) التي قالها بعد سُقُوط مدينة أدرنة ، إِحْدَى الولايات العُثْمَانِيَّة ، في يد البلغار سنة 1912م :

فِيمَ التَّخَاذُلُ بَينَكُمْ وَوَرَاءَكُمْ أُمَمٌ تُضَاعُ حُقُوقُهَا وَتُضَامُ ؟

اللهُ يَشْهَدُ لَمْ أَكُنْ مُتَحَزِّبًا ، فِي الرُّزْءِ لا شِيَعٌ وَلا أَحْزَامُ

إِنَّ الأُلَى فَتَحُوا الفُتُوحَ جَلائِلاً دَخَلُوا عَلَى الأُسْدِ الغِيَاضَ وَنَامُوا

رَفَعُوا عَلَى السَّيفِ البِنَاءِ ؛ فَلَمْ يَدُمْ مَا لِلبِنَاءِ عَلَى السُّيُوفِ دَوَامِ

أَبْقَى المَمَالِكَ مَا المَعَارِفُ أُسُّهُ وَالعَدْلُ فِيهِ حَائِطٌ وَدِعَامُ(2)

إِنَّ المَمَالِكَ تَبْقَى بِالعَدْل ، والتَّعَسُّف والظُّلْم مُؤْذِنٌ بِالخَرَاب ، إنه هجاء « حَضَارِيّ يَلِيقُ بِمَعَايِير العَصْرِ ، لا بِخُلُق البَدَاوة فِي الشَّتْم والتَّنَابُذ ، وذَلِكَ ارتقاءٌ بالهجاء العربيّ ، ومَزِيَّة كُبْرَى من مزايا التجديد سُبِقَ إليها شوقي غيرَ مُدَافِع » (3) .

إنه لم يَكُنْ مُنْحَازًا لِلعُثْمَانِينَ ، يُدَافِعُ عَنْهُم بِكُلِّ جَوَارِحِه ، ويُغْمِضُ الطَّرْفَ عَنْ أَخْطَائِهِمْ ، ويَتَجَاوَزُ عَنْها ، بَل مَدَحَهُم عندما وَجَدَهُمْ يستحقون هذا المدح ، وذَمَّهُم عِنْدَما جَاوَزوا الصواب ، ولم يكن الأمرُ اتِّبَاعًا للهوى كما ذَهَبَ كُلٌّ مِنْ : العَقَّاد (4) وهِيكَل (5) .

---

(1) المصدر السابق , 1/ 226- 227 .

(2) أحمد شوقي : الشوقيات , 1/235- 236 .

(3) حلمي علي مرزوق : شوقي وقضايا العصر والحضارة , ص 25 .

(4) عباس محمود العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1963م ، ص 184 .

(5) انظر : أحمد شوقي : الشوقيات ، 1/14 من مقدمة الديوان .

وقد أَمَرَ السُّلْطَان عبد الحميد عام 1908م بإصدار الدستور ، بوصفه مظهرًا من مظاهر الحُرِّيَّة السياسيَّة ؛ فَبَشَّرَ به شوقي ، يقول في مطلع في قصيدته (الدُّسْتُور العُثْمَانِي) :

بُشْرَى البَرِيَّةِ قَاصِيهَا وَدَانِيهَا حَاطَ الخِلافَةَ بِالدُّسْتُورِ حَامِيهَا [1]

إنه يُبَشِّرُ بالدستور ، الذي يَبْنُونَ بِهِ حَائِط مُلْكِهِمْ [2] ؛ لِعِلْمِهِ بِجَزِيل فَضْلِهِ ؛ فَلا بُدَّ مِنْ أَنْ يَقُومَ الحُكْم عَلَى الشُّورَى ، التي دعانا إليها القرآن الكريم في قوله تعالى : {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ }[3] .

وبعد انتصار الأتراك على أعدائهم في ميدان الحرب ، على يد مصطفى باشا كامل أتاتورك سنة 1923م ، أعلن هذا الأخير إلغاء الخلافة ، ونَفْي الخليفة من بلاد الأتراك [4] ؛ فنظم شوقي قصيدته (خِلافَة الإِسْلام) ، وفيها يقول :

عَادَتْ أَغَانِي العُرْسِ رَجْعَ نُوَاحِ وَنُعِيتِ بَينَ مَعَالِمِ الأَفْرَاحِ

كُفِّنْتِ فِي لَيلِ الزِّفَافِ بِثَوبِهِ وَدُفِنْتِ عِنْدَ تَبَلُّجِ الإِصْبَاحِ

ضَجَّتْ عَلَيكِ مَآذِنٌ ، وَمَنَابِرٌ وَبَكَتْ عَلَيكِ مَمَالِكٌ ، وَنَوَاحِ

الهِنْدَ وَالِهَةٌ ، وَمِصْرُ حَزِينَةٌ تَبْكِي عَلَيكِ بِمَدْمَعٍ سَحَّاحِ

وَالشَّامُ تَسْأَلُ ، وَالعِرَاقُ ، وَفَارِسٌ

أَمَحَا مِنَ الأَرْضِ الخِلافَةَ مَاحِ ؟ [5]

---

(1) أحمد شوقي : الشوقيات , 286/1 .

(2) يقول شوقي في قصيدته (المؤتمر) :

يَبْنُونَ بِالدُّسْتُور حَائِطَ مُلْكِهِمْ لا بِالصِّفَاح وَلا عَلَى الأَرْمَاحِ

- المصدر السابق , 155/2 .

(3) سورة الشورى : الآية 38 .

(4) انظر : أحمد شوقي : الشوقيات , 1/ 105 ، حاشية الصفحة .

(5) المصدر السابق , 1/ 105- 106 .

يرثي الخلافة الإسلاميَّة ، ويُعَبِّر عن ألمه الشديد مِنْ جَرَّاء ما أصابها ؛ إنَّهُ يَنْعَى على العالم الإسلاميّ سُقُوط الخِلافَة مِنَ الهِنْدِ إلى مِصْر وبلاد فارس والعراق , ولو كان ولاءً عِرْقِيًّا لم يكن شيئًا من ذلك .

ثَالِثًا : هُوِيَّة فِرْعُونِيَّة [1] :

لم تَخْفُتْ الهُوِيَّة المِصْرِيَّة وجُذُورها الفِرْعُونِيَّة بتأثير وَهَج الهُوِيَّة التُّرْكِيَّة العُثْمَانِيَّة المُضَفَّرَة بِالهُوِيَّة الإِسْلامِيَّة ؛ فَلَمْ يَتَخَلَّ شوقي عن انتمائه المصريّ ، لكنه لم يَرَ في العثمانيين إلا دِعَامَة لهذه الهُوِيَّة ، بغير تَعَصُّبٍ عِرْقِيّ ، ولا تَعَصُّب دينيّ ، ودليل ذلك أنه بقدر ما اهتم بهُوِيَّتِهِ الإسلاميَّة ، اهتم أيضًا بهُوِيَّته الأُم الهُوِيَّة الفِرْعُونِيَّة ، وهي في نظر بعض المُتَشَدِّدِينَ تُعَدُّ وثنية مِثْلَها مِثْل حضارة اليونان والرومان .

فنراه يذكر رمسيس ، وأبا الهول ، والأهرام ، وتوت عنخ آمون ، وفرعون ، وإيزيس ، والإسكندر ، وخوفو ، ومينا ، ورع ، وأمون ، وغيرهم .

إنَّ قارئ ديوان شوقي يَلْمَسُ – بِوُضُوح – فَخْرَهُ بهُوِيَّته الفرعونيَّة , يقول في قصيدته (تُوت عَنْخ آمُون وَحَضَارَة عَصْرِه) :

يَا ابْنَ الثَّوَاقِبِ مِنْ رَعٍ وَابْنَ الزَّوَاهِرِ مِنْ أَمُونْ [2]

ويقول في قصيدته (أَيُّهَا النِّيل) :

أَينَ الفَرَاعِنَةُ الأُلَى اسْتَذْرَى بِهِمْ عِيسَى وَيُوسُفُ وَالكَلِيمُ المُصْعَقُ ؟ [3]

وتَحَدَّثَ في قصيدته (كِبَار الحَوَادِث فِي وَادِي النِّيل) عن مُلُوك مِصْر القدماء ، يقول :

---

(1) انظر : عرفان شهيد : شوقي ومصر الفرعونية ، مجلة فصول ؛ مجلة النقد الأدبي ، عدد خاص عن (شوقي وحافظ ، الجزء الثاني) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، المجلد الثالث ، العدد الثاني ، يناير - مارس 1983م ، ص 322 – 328 .

(2) أحمد شوقي : الشوقيات , 2/ 96 .

(3) المصدر السابق , 2/ 66 .

قُلْ لِبَانٍ بَنَى ، فَشَادَ ؛ فَغَالَى : لَمْ يَجُزْ مِصْرَ فِي الزَّمَانِ بِنَاءُ
وَبَنُو الشَّمْسِ مِنْ أَعِزَّةِ مِصْرٍ وَالعُلُومُ التِي بِهَا يُسْتَضَاءُ
لَبِثَتْ مِصْرُ فِي الظَّلامِ ، إِلَى أَنْ قِيلَ : مَاتَ الصَّبَاحُ وَالأَضْوَاءُ (1)

ويقول عن رمسيس في القصيدة نفسها :

مَنْ كَرَمْسِيسَ فِي المُلُوكِ حَدِيثًا وَلِرَمْسِيسٍ المُلُوكُ فِدَاءُ
فَسَمِعْنَا عَنِ الصَّبِيِّ الذِي يَعْـ فُو ، وَطَبْعُ الصِّبَا الغَشُومُ الإِبَاءُ
وَأَرَانَا التَّارِيخُ فِرْعَونَ يَمْشِي لَمْ يَحُلْ دُونَ بِشْرِهِ كِبْرِيَاءُ
جَلَّ رَمْسِيسُ فِطْرَةً ، وَتَعَالَى شِيعَةً أَنْ يَقُودَهُ السُّفَهَاءُ
وَسَمَا لِلعُلا ؛ فَنَالَ مَكَانًا لَمْ يَنَلْهُ الأَمْثَالُ وَالنُّظَرَاءُ
وَجُيُوشٌ يَنْهَضْنَ بِالأَرْضِ ملكًا وَلِوَاءٌ مِنْ تَحْتِهِ الأَحْيَاءُ
وَعُلُومٌ تُحْيِي البِلادَ وَبِنْتَا هُورُ فَخْرُ البِلادِ ، وَالشُّعَرَاءُ (2)

ويذكر رَمْسِيس في قصيدته (تِمْثَال نَهْضَة مِصْر) ؛ فيقول :

وَأَقبَلَ رَمْسِيسُ جَمَّ الجَلالِ سَنِيَّ المَوَاكِبِ ، مُخْتَالَهَا (3)

إنه يفخر بعظمة تاريخه الفرعونيّ ؛ فهو مُعْجَبٌ بعلومه , وفنونه , وفلسفته , وأساطيره التي يُفَاخِرُ بها اليونان .

يقول مفاخرًا بإيزيس الإلهة المصريَّة الشهيرة في قصيدته (كِبَار الحَوَادِث فِي وَادِي النيل) :

سَجَدَتْ مِصْرُ فِي الزَّمَانِ لِإِيزْيـ سَ النَّدَى، مَنْ لَهَا اليَدُ البَيضَاءُ
قِيلَ : إِيزِيس رَبَّةَ الكَونِ ، لَولا أَنْ تَوَحَّدْتِ ، لَمْ تَكُ الأَشْيَاءُ
وَاتَّخَذْتِ الأَنْوَارَ حُجْبًا ؛ فَلَمْ تُبْـ صِرْكِ أَرْضٌ، وَلا رَأَتْكِ سَمَاءُ
لَكَ آبِيسُ ، وَالمُحَبَّبُ أَوزِيـ ريسُ ، وَابْنَاهُ كُلَّهُمْ أَولِيَاءُ
مُثِّلَتْ لِلعُيُونِ ذَاتُكِ ، وَالتَّمْـ ثِيلُ يُدْنِي مَنْ لا لَـهُ إِدْنَاءُ

---

(1) أحمد شوقي : الشوقيات , 1/ 18 - 20 .

(2) المصدر السابق , 1/ 20- 21 .

(3) المصدر نفسه , 184/2 .

وَادَّعَاكِ اليُونَانُ مِنْ بَعْدِ مِصْرَ وَتَـلاهُ فِي حُبِّكِ القُدَمَاءُ

فَإِذَا قِيلَ : مَا مَفَاخِرُ مِصْرَ ؟ قِيلَ : مِنْهَا إِيزِيسهَا الغَرَّاءُ (1)

وغَيرُ خَافٍ أَنَّ إيزيس مِنْ معبودات قدماء المصريين ، وأخت أوزيريس وزوجه في الوقت نفسه .

ويقول عن إيزيس في قصيدته (أبو الهول) :

وَإِيزِيسُ خَلْفَ مَقَاصِيرِهَا تَخَطَّى المُلُوكُ إِلَيـهَا السُّتُرْ

تُضِيءُ عَلَى صَفَحَاتِ السَّمَا ءِ ، وَتُشْرِقُ فِي الأَرْضِ مِنْهَا الحُجَرْ (2)

وبعد ذلك يذكر موسى وعيسى (عليهما السلام) ، يقول :

وَآنَسْتَ مُوسَى وَتَـابُوتَهُ وَنُورَ العَصَا ، وَالوَصَـايَا الغُرَرْ

وَعِيسَى يَلُمُّ رِدَاءَ الحَيَا ءِ , وَمَرْيَمُ تَجْمَعُ ذَيلَ الخَفَرْ (3)

وعلى الرغم من أنه ماضٍ عتيق , غائر في القدم ؛ فإنه يأتنسُ به ائتناس الابن بأبيه , يقول في قصيدته (على سفح الأهرام) :

قِفْ نَـاجِ أَهْرَامَ الجَلالِ ، وَنَـادِ : هَلْ مِنْ بُنَاتِكَ مَجْلِسٌ أَو نَادِ ؟

نَشْكُو ، وَنَفْزَعُ فِيهِ بَينَ عُيُونِهِمْ إِنَّ الأُبُوَّةَ مَفْـزَعُ الأَولادِ

قُلْ لِلأَعَاجِيبِ الثَّلاثِ مَقَـالَـةً مِنْ هَاتِفٍ بِمَكَانِهِنَّ وَشَـادِ

للهِ أَنْتِ ؛ فَمَا رَأَيتُ عَلَى الصَّفَا هَذَا الجَلالَ ، وَلا عَلَى الأَوتَادِ (4)

ويجعل الأهرام – في قصيدته (على قبر نابليون) – زَهْوًا للأَبْطَال ، ومِحْرَابًا لِلقُرُون :

قُمْ إِلَى الأَهْرَامِ وَاخْشَعْ ، وَاطَّرِحْ خَيلَةَ الصَّيدِ ، وَزَهوَ الفَاتِحِين (5)

ويتحدث عن بناء الأهرامات – في قصيدته (أَيُّهَا النِّيل) – فيقول :

---

(1) المصدر نفسه , 1/ 26 – 27 .

(2) أحمد شوقي : الشوقيات , 140/1.

(3) المصدر السابق , 141/1 .

(4) المصدر نفسه , 1/ 113 .

(5) المصدر نفسه , 1/ 258 .

هِيَ مِنْ بِنَـاءِ الظُّلْمِ ، إلاَّ أَنَّـهُ يَبْيَضُّ وَجْهُ الظُّلْمِ مِنْهُ وَيُشْرِقُ [1]

ويَذْكُرُ الأَهْرَام مُتَشَوِّقًا إلى مِصْر في قصيدته (الرِّحْلَة إلى الأَنْدَلُس) :

وَكَأَنَّ الأَهْرَامَ مِيْزَانُ فِرْعَو نَ بِيَومٍ عَلَى الجَبَابِرِ نَحْسِ

أَو قَنَاطِيرُهُ تَـأَنَّقَ فِيهَا أَلْفُ جَابٍ وَأَلْفُ صَاحِبِ مَكْسِ

رَوعَةٌ فِي الضُّحَى ، مَلاعِبُ جِنٍّ حِينَ يَغْشَى الدُّجَى حِمَاهَا وَيُغْسِي [2]

ويقول عن أبي الهول في القصيدة نفسها :

وَرَهِينُ الرِّمَالِ أَفْطَسُ ، إلاَّ أَنَّهُ صُنْـعُ جِنَّةٍ غَيرُ فُطْسِ

تَتَجَلَّى حَقِيقَةُ النَّـاسِ فِيـهِ سَبُعُ الخَلْقِ فِي أَسَارِيرِ إِنْسِي [3]

إنه مركوز في الرمال لا يستطيع أن يَتَحَوَّلَ عنها ، وهو منسوب إلى صَنْعَة الجِنّ ؛ لِعَجْز البشر عن مِثْلِ هَذَا البناء الخارق .

ويَذْكُرُ أبا الهول وحضارة القدماء في قصيدته (أبو الهول) ، ومطلعها :

أَبَا الهَولِ ، طَالَ عَلَيكَ العُصُرْ وَبُلِّغْتَ فِي الأَرْضِ أَقْصَى العُمُرْ [4]

فإنَّ أبَا الهول يشهد على بقاء ذلك التراث العظيم إلى الآن ، يقول :

أَبَا الهَولِ ، مَا أَنْتَ فِي المُعْضِلا تِ ؟ لَقَدْ ضَلَّتِ السُّبْلَ فِيكَ الفِكَرْ !

وَسِرُّكَ فِـي حُـجْبِهِ كُلَّمَا أَطَلَّتْ عَلَيهِ الظُّنُونُ اسْتَتَرْ

وَمَا رَاعَهُمْ غَيرُ رَأْسِ الرِّجَالِ عَلَى هَيكَلٍ مِنْ ذَوَاتِ الظُّفُرْ

أَبَا الهَولِ ، أَنْتَ نَدِيمُ الزَّمَا نِ ، نَجِيُّ الأَوَانِ ، سَمِيرُ العُصُرْ

بَسَطْتَ ذِرَاعَيكَ مِنْ آدَمٍ وَوَلَّيتَ وَجْهَكَ شَطْرَ الزُّمَـرْ

تُطِلُّ عَلَى عَالَمٍ يَسْتَهِلْ لُ ، وَتُوفِي عَلَى عَالَمٍ يُحْتَضَرْ [5]

---

(1) المصدر نفسه , 2/ 67 .

(2) أحمد شوقي : الشوقيات , 2/ 47 .

(3) المصدر السابق , الصفحة نفسها .

(4) المصدر نفسه ، 132/1 .

(5) المصدر نفسه , 1/ 134-137 .

وغيرُ خَافٍ أَنَّ أَبَا الهَول يَحْمِلُ جِسْمَ أَسَد ورَأْس إِنْسَان ؛ ورُبَّمَا قَصَدَ قُدَمَاء المِصْرِيينَ مِنْ ذَلِك أَنْ يَجْمَعُوا بَينَ قُوَّة الأَسَد ، وَحِكْمَة الإِنْسَان .

ويُطِيلُ في عظمة مصر القديمة وحضارة الفراعنة التي (لم يَجُزْهَا في الزمان بناء) ، ويذكر فلسفتهم وحكمتهم ودياناتهم .

ويقول مُخَاطِبًا تُوت عَنْخ آمُون في قصيدته (تُوت عَنْخ آمُون وحَضَارة عَصْره) :

أَنَزَلْتَ حُفْرَةَ هَالِكٍ أَمْ حُجْرَةَ المَلِكِ المَكِينْ ؟
أَمْ فِي مَكَانٍ بَينَ ذَ لِكَ يُدْهِشُ المُتَأَمِّلِينْ ؟
هُوَ مِنْ قُبُورِ المُتْلَفِيـ نَ ، وَمِنْ قُصُورِ المُتْرَفِينْ
لَمْ يَبْقَ غَالٍ فِي الحَضَا رَةِ لَم يَحُزْهُ ، وَلا ثَمِينْ
مَيتٌ تُحِيطُ بِهِ الحَيَا ةُ ، زَمَانُـهُ مَعَهُ دَفِينْ
وَذَخَائِرٌ مِنْ أَعْصُرٍ وَلْـ لَتْ ، وَمِنْ دُنْيَا وَدِينْ
حَمَلَتْ عَلَى العَجَبِ الزَّمَا نَ وَأَهْلَـهُ المُسْتَكْبِرِينْ (1)

وهو يَفْتَخِرُ بتُوت عَنْخ آمُون ، الذي صَنَعَهُ المِصْرِيُونَ القُدَمَاء ، ويُعَدُّ مِنْ عَجَائِب الدُّنْيَا ، التِي أَبْهَرَتِ العَالَم ، وَأَدْهَشَتِ المُتَأَمِّلِينَ .

ويتحدث عن الحضارة الفرعونية الدَّارِسَة ، ويُشِيدُ بِفَضْل مُلُوكِهِمْ (مُلُوك الدَّهْر) ، الذين اهتموا بتشييد الآبدات ، يقول في قصيدته (تُوت عَنْخ آمُون) :

فَكَانُوا الشُّهْبَ حِينَ الأَرْضُ لَيلٌ وَحِينَ النَّاسُ جِدُّ مُضَلَّلِينَا
مُلُوكُ الدَّهْرِ بِالوَادِي أَقَامُوا عَلَى وَادِي المُلُوكِ مُحَجَّبِينَا
غَدَوا يَبْنُونَ مَا يَبْقَى ، وَرَاحُوا وَرَاءَ الآبِدَاتِ مُخَلَّدِينَا
إِذَا عَمَدُوا لِمَأْثُرَةٍ أَعَدُّوا لَهَا الإِتْقَانَ وَالخُلْقَ المَتِينَا
فَنَاجِيهِمْ بِعَرْشٍ كَانَ صِنْوًا لِعَرْشِكَ فِي شَبِيبَتِهِ سَنِينَا
وَكَانَ العِزُّ حُلْيَتَهُ ، وَكَانَتْ قَوَائِمُهُ الكَتَائِبَ وَالسَّفِينَا

(1) أحمد شوقي : الشوقيات , 2/ 97 .

وَتَاجٍ مِنْ فَرَائِدِهِ ابْنُ سِيتِي وَمِنْ خَرَزَاتِهِ خُوفُو وَمِينَا [1]

ابن سيتي ، هو رمسيس الثاني ، المعروف بسوزستريس ، ويُلَقَّب بالأكبر ؛ لأنه أعظم مُلُوك مِصْر سُلْطَة ، وقد طَالَتْ مُدَّةُ حُكْمِهِ ، وبنى العمائر الفاخرة ، وخَلَّدَ الآثار العريقة ، و(خوفو) و(مينا) : من ملوك الفَرَاعِنَة (آل شَمْسٍ) ، وفي عهدهما ازدهرت مصر ، وبُنِيَتْ الأهرامات [2] .

ثم يتحدث – في القصيدة نفسها – عن مُلُوك الفَرَاعِنة الخالدين الذين وإن غابوا عن الحياة فإنَّ آثارهم باقية كما يبقى دفء الشمس حين تَغْرُب ؛ فَهُمْ : (الشُّمُوس الغَارِبين) ، ويذكر الملك توت عنخ آمون الذي أحدث اكتشاف مقبرته ضجَّة عالميَّة بسبب ما تحويه من عجائب ونفائس تدُلُّ على ما وصلت إليه الحضارة المِصْرِيَّة القَدِيمَة مِنْ رُقِيٍّ وعُلُوّ ، يقول :

خَلِيلَيَّ اهْبِطَا الوَادِي ، وَمِيلا إِلَى غُرَفِ الشُّمُوسِ الغَارِبِينَا
وَسِيرَا فِي مَحَاجِرِهِمْ رُوَيدًا وَطُوفَا بِالمَضَاجِعِ خَاشِعِينَا
وَخُصَّا بِالعَمَارِ وَبِالتَّحَايَا رُفَاتَ المَجْدِ مِنْ تُوتَنَخَمِينَا
وَقَبْرًا كَادَ مِنْ حُسْنٍ وَطِيبٍ يُضِيءُ حِجَارَةً وَيَضُوعُ طِينَا
يُخَالُ لِرَوعَةِ التَّارِيخِ قُدَّتْ جَنَادِلُهُ العُلا مِنْ طُورِ سِينَا
وَكَانَ نَزِيلُهُ بِالمَلْكِ يُدْعَى فَصَارَ يُلَقَّبُ الكَنْزَ الثَّمِينَا
جَلالُ المُلكِ أَيَّامٌ وَتَمْضِي وَلا يَمْضِي جَلالُ الخَالِدِينَا [3]

ويُوَجِّهُ خِطَابَهُ لهذا المَلِكِ القَدِيم في إيماءةٍ رَمْزِيَّةٍ إلى كُلِّ ديكتاتورٍ يتحكَّم في رعيَّته ، ويظنُّ أنَّ مُلْكَهُ غَيرُ زائل ؛ فيقول في خِتَام القصيدة :

زَمَانُ الفَرْدِ – يَا فِرْعَونُ – وَلَّى وَدَالَتْ دَولَةُ المُتَجَبِّرِينَا
وَأَصْبَحَتِ الرُّعَاةُ بِكُلِّ أَرْضٍ عَلَى حُكْمِ الرَّعِيَّةِ نَازِلِينَا [4]

---

(1) أحمد شوقي : الشوقيات , 1/ 267 - 268 .

(2) انظر : المصدر السابق , 1/ 268 - 269 ، حاشية (6) .

(3) المصدر نفسه , 1/271 - 272 .

(4) المصدر نفسه , 1/ 274 .

فقد تَبَدَّل زَمَان حُكْم الفرد الطاغية المُسْتَبِد ، وصَارَ الحَاكِمُ يخضع لحُكْم الرعية وإرادة الشعب صاغرًا مُسْتَكِينًا .

وأكبر الظن أن شوقي مُدْرِكٌ لدوره التاريخيّ ؛ لذا يَتَكَلَّم بنبرة المُؤَرِّخ ؛ « فعندما يأتي الشاعر للتَّغَنِّي بالماضي الحضاريّ وأمجاده الزاهرة ؛ فإنه من اليسير عليه أن ينزلق لِمُجَارَاةِ تَصَوُّر العُصُور الماضية ... وهنا نَعْثُرُ على المَحَكِّ الحقيقيّ لِمَدَى تأصُّل الفكر الحديث في الخطاب الشعريّ , هل يُقَدِّمُ لنا منظورًا سليمًا للتاريخ , أم يقع بسهولة في شَرَكِ الحَنِين لِلمَاضِي لملاحظة تَدَهْوُر الحاضر وانحطاطه ؟ عندئذٍ نجد موقف شوقي بالغ التماسُك والوُضُوح في رؤيته للتاريخ , وإيمانه بالتقدُّم الإنسانيّ والحضاريّ , والتبشير بالمستقبل , دون أن يقع في (النوستالجيا) ، أو يخضع لوهم العصور الذهبيَّة الغابرة » [1] .

ويستمر شوقي في التَّغنِّي بأمجاد الحضارة الزَّاهرة ، والمعجزات الخالدة التي لم يقدر على محوها تعاقب الأزمنة وتغيُّر الأحوال ، والتي ما زالت تُبْهِرُنَا وتُوقِعُ فِي أَنْفُسِنَا العُجْبَ بِأَجْدَادِنَا في كلِّ حين ، يقول في قصيدته (تِمْثَال نَهْضَة مِصْر) :

فَمَنْ يُبْلِغُ (الكَرْنَكَ) الأَقْصُرِيَّ وَيُنْبِئُ (طِيبةَ) أَطْلالَهَا
وَيُسْمِعُ ثَمَّ بِوَادِي المُلُوكِ مُلُوكَ الدِّيَارِ وَأَقْيَالَهَا
وَكُلَّ مُخَلَّدَةٍ فِي الدُّمَى هُنَالِكَ لَمْ نُحْصِ أَحْوَالَهَا
عَلَيهَا مِنَ الوَحْيِ دِيبَاجَةٌ أَلَحَّ الزَّمَانُ فَمَا ازْدَالَهَا
تَكَادُ – وَإِنْ هِيَ لَمْ تَتَّصِلْ بِرُوحٍ – تُحَرِّكُ أَوصَالَهَا [2]

ومِمَّا يَدُلُّ على فهْم شوقي لهُوِيَّته المصريَّة فهمًا عميقًا أنه جعل الحضارة المِصْرِيَّة القديمة هي الأصل الذي نَبَتَتْ منه الشخصيَّة المصريَّة , التي قَبِلَتْ الحضارات الأخرى , والديانات المتعددة .

---

(1) صلاح فضل : فصول عن شوقي أمير الشعراء , الدار المصرية اللبنانية , القاهرة ، ط1، 2008م , ص 38

(2) أحمد شوقي : الشوقيات , 2/ 185 .

ويُشِيدُ بِمَجْدِ الحَضَارَة الفِرْعُونِيَّة في قصيدة (البَرْلَمَان) ، على أثر ائتلاف الأحزاب ؛ فيقول :

وَحَضَارَةٌ مِنْ مَنْطِقِ الوَادِي لَهَا أَصْلٌ ، وَمِنْ أَدَبِ البِلادِ نِجَارُ (1)

ويتضمن حديث شوقي عن حضارة الفراعنة الفَخْر « بأمرين لا اختلاف عليهما بين المُؤَرِّخِينَ وكُتَّاب الحَضَارَات ، هُمَا الدِّين أو السَّبْق إلى الألوهية وفلسفة الخلود ، ثُمَّ الفَن الفِرْعُونِيّ القديم في عَبْقَرِيَّة الأَهْرَام أو هَنْدَسة المِعْمَار ومَوهِبَة النَّحْت والتَّصْوِير » (2) .

يقول في قصيدته (تُوت عَنْخ آمُون وَحَضَارَة عَصْرِه) :

حُبُّ الخُلُودِ بَنَى لَكُمْ خُلُقًا بِهِ تَتَفَرَّدُونْ (3)

لَقَدْ تَمَثَّلَتْ سَعَادَتُهُمْ فِي الخُلُود ؛ فَأَرَادُوا البَقَاء وتَخْلِيد الذِّكْر حَتَّى بَعْدَ المَمَاتِ ؛ فَبَذَلُوا الهِمَم العالية ، والعَزَائِم المَاضِيَة ؛ لتحقيق ذلك المطلب وتحصيل المجد ، يقول في قصيدة (أَيُّهَا النِّيل) :

وَتَبَيَّنُوا مَعْنَى الوُجُودِ ؛ فَلَمْ يَرَوا دُونَ الخُلُودِ سَعَادَةً تَتَحَقَّقُ (4)

ولا يُنْكِرُ أَحَدٌ عَظَمة الآثار الفُرْعُونِيَّة ، وإبداع صُنْعِهَا ؛ وكأنها صُوَرًا تَتَحَرَّك ، لا تماثيل جامدة ثابتة ؛ حَتَّى إِنَّ المُرْتَاب لَيَلْمَسَهَا بيده ؛ ليتأكد مِنْ سُكُونِهَا ، بعد أن خدعته عينيه ؛ فَظَنَّ أَنَّهَا تَتَحَرَّك ، يقول في قصيدته (تُوت عَنْخ آمُون وَحَضَارَة عَصْرِه) :

صُوَرٌ تُرِيكَ تَحَرُّكًا وَالأَصْلُ فِي الصُّوَرِ السُّكُونْ
وَيَمُرُّ رَائِـعُ صَمْتِهَا بِالحِسِّ كَالنُّطْقِ المُبِينْ
خَدَعَ العُيُونَ وَلَم يَزَلْ حَتَّى تَحَدَّى اللامِسِينْ (5)

---

(1) أحمد شوقي : الشوقيات , 2/ 164 .

(2) حلمي علي مرزوق : شوقي وقضايا العصر والحضارة , ص 155 .

(3) أحمد شوقي : الشوقيات , 2/ 96 .

(4) المصدر السابق , 2/ 67 .

(5) أحمد شوقي : الشوقيات , 2/ 98 .

ولَعَلَّ اهتمام شَوقي بِتَسْجِيل أمجاد التَّارِيخ الفُرْعُونِي ورصدها عبر شعره ؛ سَعْيًا لِبَثِّ الحَمَاسَة ، وإيقَاظ الهِمَّة ، وترسيخ قيم الانتماء والولاء في نُفُوس شباب مصر ؛ لِيَحْذَوا حَذْو هؤلاء المُلُوك ، الذين تَرَكُوا آثارًا خالدة ، لا تَبْلَى على مر الزمان .

رَابِعًا : هُوِيَّة مَسِيحِيَّة :

لا يُنْكِرُ أَحَدٌ تَجَاوُر الدِّيَانَات الثلاث (الإسلام – المسيحية – اليهودية) في مِصْر لأسبابٍ كثيرة ؛ فالإله واحد ، والديانات ثلاث ؛ وقد كانت هناك مَظَاهر تَعَايُش واحترام بين الديانات الثلاث ، بَرَزَتْ فِي شِعْر شوقي ، الذي عَبَّرَ فِيهِ عَنْ وَعْيه العَمِيق بِدُور القبط في مِصْر ، وقَبُوله الرَّشِيد للآخر غير المُسْلِم .

وتَجَلَّتْ هذه المَظَاهِر في الشَّرَاكَة التجاريَّة بين أصحاب الديانات الثلاث ، التي ظهرت في السينما المِصْرِيَّة في فِيلمي : (فاطمة وماريكا وراشيل) ، و(حسن ومرقص وكوهين) ؛ فقد صَوَّر الفيلمان ، وغيرهما من أعمال سينمائية ، هذا القَبُول والانْصِهَار بين هذه الديانات .

ولم يَقْتَصِرُ الأَمْرُ عَلَى هَذَا الحَدّ ، بل وَصَلَ إلى ذروته في ثورة 1919م ؛ إِذْ تَجَمَّعَ النساء القبطيات عند صَفِيَّة زغلول ، وَغَزَلْنَ على أعلام الثورة الهلال مُعَانِقًا الصليب ؛ وخَرَجْنَ مع المتظاهرين يَهْتِفْنَ بالاستقلال ، فضلاً عن دُخُول أَئِمَّة المَسَاجِد الكَنَائِس والأَدْيِرَة لِزِيَادَة حَمَاس المُتَظَاهِرِين ، وبالمثل اعتلى القساوسة والرهبان المنابر لِشَحْذ هِمَم المُتَظَاهِرِينَ ، ومنهم القمص ملطي سرجيوس عبد الملاك [1] .

إلى جانب وُجُود شَخْصِيَّات مَسِيحيَّة أَثَّرَتْ في المُسْلِمِينَ ؛ لدرجة دفعت أحد الشُّيُوخ ، ويُسَمَّى مُصْطَفَى ، أَنْ يُسَمِّي طِفْلَهُ اسمًا مُرَكَّبًا تَيَمُّنًا بصاحب

---

(1) انظر : محمد عفيفي : الدِّينُ وَالسِّيَاسَةُ فِي مِصْر المُعَاصِرَة ؛ القمص سرجيوس ، دار الشروق ، القاهرة ، ط1 ، 1421هـ - 2001م ، ص 17 .

الاسم ، وهو مَكْرَم عبيد مُصْطَفَى ؛ وذلك لأنَّه كان أحد الشخصيات المُعْتَدِلَة الحَافِظَة لِلقُرْآن الكَرِيم [1] .

وقد ظهرت الهُوِيَّة المَسِيحِيَّة فِي شِعْر شَوقِي ؛ لأنَّهُ لا يستطيع أن يختزل هذا الجزء البارز من تاريخ مصر ؛ لقد عَرَضَ فَتْرَة الاندماج بين المجتمع المسيحيّ المصريّ , والوافد العربيّ الإسلاميّ , وصَوَّر كيف أعان الإسلامُ المسيحيينَ , وأخرجهم من حُكْم الرُّومان الغَاشِم , مُتَمَثِّلاً في (المُقَوقِس) مندوبهم وقتئذٍ , على يد عمرو بن العاص , وجيوشه , يقول في قصيدته (أبو الهول) :

فَكَيفَ رَأَيتَ الهُدَى وَالضَّلا لَ ، وَدُنْيَا المُلُوكِ ، وَأُخْرَى عُمَرْ ؟
وَنَبْذَ المُقَوقِسِ عَهْدَ الفُجُو رِ ، وَأَخْذَ المُقَوقِسِ عَهْدَ الفَجَرْ
وَتَبْدِيلَهُ ظُلُمَاتِ الضَّلا لِ بِصُبْحِ الهِدَايَةِ لَمَّا سَفَرْ
وَتَأْلِيفَهُ القِبَطَ وَالمُسْلِمِي نَ كَمَا أُلِّفَتْ بِالوَلاءِ الأُسَرْ [2]

هنا يكشف شوقي عن عمود من أعمدة الهُوِيَّة المِصْرِيَّة , وهو الجانب القِبْطِيّ , ونقصد به الفترة المسيحيَّة التي عاشتها مصر , وهي غالبًا سنة 284م ؛ فقد أخذت مصر وقتئذٍ معلمًا حضاريًّا جديدًا ؛ فاللغة تغيَّرَتْ وَسَادَتْ اللغة القبطيَّة , والديانة أيضًا تغيَّرَت وسَادَتْ الديانة المسيحيَّة [3] .

على أن كلمة (قِبْطِيّ) لا تُرَادِف بالضرورة كلمة مسيحيّ ؛ « فكلمة القِبْطِيّ تعني مِصْرِيّ في هذه الفترة , لا دِينًا بعينه » [4] .

---

(1) انظر : مصطفى الفقي : الأقباط في السياسة المصرية ؛ مكرم عبيد ودوره في الحركة الوطنية ، دار الشروق ، القاهرة ، ط2 ، 1988م ، ص 60 – 61 . وانظر : جاك تاجر : أقباط ومسلمون ؛ منذ الفتح العربي إلى عام 1922م ، مُؤَسَّسَة هِنْدَاوِيّ للتعليم والثقافة ، القاهرة , ط1 ، 2012م . لجنة التأليف القبطي : تاريخ الأُمَّة القِبْطِيَّة ؛ الحلقة الثانية ؛ خلاصة تاريخ المسيحية في مصر ، وزارة المعارف العمومية ، القاهرة ، ط3 ، 1925م .

(2) أحمد شوقي : الشوقيات , 1/ 142 .

(3) انظر : ميلاد حنا : الأعمدة السبعة للشخصية المصرية , ص 86 - 87 .

(4) زبيدة محمد عطا : قبطيّ في عصر مسيحيّ , مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة

والمسيحيَّة عند شوقي ليست دِيَانة فحسب , وإنما رافدٌ من روافد الشِّرْق , مِلْؤُه التَّسَامُح , والخُلُق الطَّيِّب , يَسْتَنِدُ إلى تعاليم عيسى (عليه السلام) ، يقول في قصيدته (الأَنْدَلُس الجديدة) مُخَاطِبًا السيد المسيح :

عِيسَى ، سَبِيلُكَ رَحْمَةٌ ، وَمَحَبَّةٌ فِي العَالَمِينَ ، وَعِصْمَةٌ ، وَسَلامُ
مَا كُنْتَ سَفَّاكَ الدِّمَاءِ ، وَلا امْرَأً هَانَ الضِّعَافُ عَلَيهِ وَالأَيتَامُ
يَا حَامِلَ الآلامِ عَنْ هَذَا الوَرَى كَثُرَتْ عَلَيهِ بِاسْمِكَ الآلامُ
أَنْتَ الذِي جَعَلَ العِبَادَ جَمِيعَهُمْ رَحِمًا ، وَبِاسْمِكَ تُقْطَعُ الأَرْحَامُ
خَلَطُوا صَلِيبَكَ وَالخَنَاجِرَ وَالمُدَى كُلٌّ أَدَاةٌ لِلأَذَى وَحِمَامُ (1)

ويقول في قصيدته (كِبَار الحَوَادِث فِي وَادِي النِّيل) :

وُلِدَ الرِّفْقُ يَومَ مَولِدِ عِيسَى وَالمُرُوءَاتُ ، وَالهُدَى ، وَالحَيَاءُ
وَازْدَهَى الكَونُ بِالوَلِيدِ ، وَضَاءَتْ بِسَنَاهُ مِنَ الثَّرَى الأَرْجَاءُ
وَسَرَتْ آيَةُ المَسِيحِ ، كَمَا يَسْـ ـرِي مِنَ الفَجْرِ فِي الوُجُودِ الضِّيَاءُ
تَمْلأُ الأَرْضَ وَالعَوَالِمَ نُـورًا فَالثَّرَى مَائِجٌ بِهَا وَضَّاءُ
لا وَعِيدٌ , لا صَولَةٌ , لا انْتِقَامُ لا حُسَامٌ ، لا غَزْوَةٌ , لا دِمَاءُ (2)

تقوم الديانة المَسِيحِيَّة على الدعوة إلى الرِّفْق ، والمُرُوءَة ، والهِدَايَة ، والحياء ، والمَحَبَّة ، والسلام ، والتسامُح ؛ فتمتلئ الأرضُ نُورًا ، وتَخْلُو من الوعيد ، والتهديد ، والعِرَاك ، والانتقام ، والسيف ، والغزو ، وسَفْك الدماء .

نُلاحِظُ أَنَّ القِيَم التي مَدَحَ بها شوقي محمدًا (ﷺ) هي نفسها التي مدح بها المسيح (عليه السلام) ؛ حَتَّى تكاد تكون الألفاظ واحدة , وعلى الأخصّ في احتفائه بميلاد المسيح ؛ فقد جاء شبيهًا باحتفائه بميلاد محمد (ﷺ) ، يقول في (الهَمْزِيَّة النَّبَوِيَّة) الشهيرة :

للكتاب ، القاهرة , 2013م , ص 9 .

(1) أحمد شوقي : الشوقيات , 1/ 234 .

(2) المصدر السابق , 1/ 28 .

وُلِدَ الهُدَى ؛ فَالكَائِنَاتُ ضِيَاءُ وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءُ (1)

والمُتَتَبِّع لِشِعْرِهِ يَجِدُهُ يَكَادُ لا يَتَكَلَّم عن الإسلام إلا ويتكلم عن المَسِيحِيَّة , أو شَخْص المسيح تحديدًا , بمنطق قِوَامُهُ التسامُح , والفكر المستنير الذي يتسع للاختلافات كافَّة ، بوصفه مِصْرِيًّا يَجْمَعُ في هُوِيَّته بين الإسلام والمسيحيَّة لكونهما أساسًا لخلفيته الثقافيَّة ، ويُظْهِرُ التَّسَامُحَ بوصفه مركَّبًا أصيلاً يربط الرَّوافد المُشكِّلة للهُوِيَّة المِصْرِيَّة كافَّة , كما نرى في قوله في القصيدة نفسها :

أَثْنَى المَسِيحُ عَلَيهِ خَلْفَ سَمَائِهِ وَتَهَلَّلَتْ وَاهْتَزَّتِ العَذْرَاءُ

يَومٌ يَتِيهُ عَلَى الزَّمَانِ صَبَاحُهُ وَمَسَاؤُهُ بِمُحَمَّدٍ وَضَّاءُ (2)

فالمسيحيَّة والإسلام – مِنْ مَنْظُورِهِ المُتَسَامِح – بِمَنْزِلَة الصباح والمساء ، اللذينِ تَعَاقَبَا على الشخصيَّة المصريَّة ؛ فطبعاها بطابعٍ خاص قلَّما يتوفَّر لشعبٍ من الشعوب .

يقول في قصيدته (نهج البُرْدَة) , حين تَعَرَّضَ لدور السيف في الفُتُوح الإسلامية :

سَلِ المَسِيحِيَّةَ الغَرَّاءَ : كَمْ شَرِبَتْ بِالصَّابِ مِنْ شَهَوَاتِ الظَّالِمِ الغَلِمِ

طَرِيدَةُ الشِّرْكِ ، يُؤْذِيهَا ، وَيُوسِعُهَا فِي كُلِّ حِينٍ قِتَالاً سَاطِعَ الحَدَمِ

لَولا حُمَاةٌ لَهَا هَبُّوا لِنُصْرَتِهَا بِالسَّيفِ ، مَا انْتَفَعَتْ بِالرِّفْقِ وَالرُّحَمِ(3)

إنه يُوَازِنُ بين موقف السيف في نُصْرَة الدِّيَانَتَين , ويُدَلِّلُ على تَشَابُههما في ذلك أيضًا ؛ فهم مُضْطَرُّونَ إلى شيءٍ مِنَ العُنْفِ ليحموا قِيَمَهُمْ النبيلة ، ولكن السَّيفَ لا يُقِيمُ دَعَائِمَ المُلْكِ ، أو يَفْتَح مَغَالِيق القُلُوب .

ولن نجد بأية حال شُبْهَة تعصُّب عند شوقي , إنَّ ذلك مُحَال عند شاعر الهُوِيَّة المصريَّة ؛ فهو يرى الأُمُور بمقياس رحيب , قِوَامُهُ الإيمان بالحُرية ,

---

(1) أحمد شوقي : الشوقيات , 1/ 34 .

(2) المصدر السابق , 1/ 35 .

(3) أحمد شوقي : الشوقيات , 201/1 .

وقَبُول التَّعَدُّدِيَّة ، إِنَّهُ فِكْرٌ يَقُومُ على التسامُح , وقَبُول الآخر ؛ فإنَّ الآخر لَيسَ عَدُوًّا , ولا مُخْتَلِفًا , وإِنَّمَا شريكٌ في الأرض والتُّرَاث .

وبهذا المَنْطِق الحَضَارِيّ , أو قُلْ المُتَسَامِي على ضَغَائِن العَوَام , وتعصبُّهم , نجده يُبْدِي أَسَفَهُ – بِكِيَاسَة ولَبَاقة – لأنَّ كنيسة (أيا صوفيا) حوَّلها العثمانيون مَسْجِدًا , يقول :

كَنِيسَةٌ صَارَتْ إِلَى مَسْجِدِ هَدِيَّةُ السَّيِّدِ لِلسَّيِّدِ
كَانَتْ لِعِيسَى حَرَمًا؛ فَانْتَهَتْ بِنُصْرَةِ الرُّوحِ إِلَى أَحْمَدِ
كَنِيسَةٌ كَالفَدَنِ المُعْتَلِي وَمَسْجِدٌ كَالقَصْرِ مِنْ أَصْيَدِ
وَاللهِ عَنْ هَذَا وَذَا فِي غِنًى لَو يَعْقِلُ الإِنْسَانُ أَو يَهْتَدِي [1]

إِنَّهُ يَقِفُ مَوقِفَ المُعَلِّم , والمُفَكِّر المُصْلِح , الذي لا يتعصب إلا للمجتمع الفاضل الذي يريده ؛ فكان – بحقٍّ – شاعر الأخلاق , التي تَقُوم على التَّسَامُح .

ولفظ (التَّسَامُح) له أبعاد : إنسانيَّة ، وأخلاقيَّة ، وذهنيَّة ، ونفسيَّة ، واجتماعيَّة ، وسلوكيَّة ، وثقافيَّة ، وحضاريَّة . إنه الطريق للشعور بالسلام الداخليّ والسعادة ، والشعور بهذا السَّلام مُتَاحٌ لنا دائمًا [2] ، وبعبارة مختصرة : « التَّسَامُح هو احترام الموقف المُخَالِف » [3] .

يقول في قصيدته (الهلال والصليب الأحمران) :

جِبْرِيلُ ، أَنْتَ هُدَى السَّمَا ءِ ، وَأَنْتَ بُرْهَانُ العِنَايَهْ

---

(1) المصدر السابق , 2/ 25 – 26 .

(2) جيرالد ج جامبولسكي : التسامح ؛ أعظم علاج على الإطلاق ، تقديم نبيل دونالد والش ، مكتبة جرير ، المملكة العربية السعودية ، طبعة خاصة أصدرتها : مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، 2007م ، ص 44 .

(3) صالح شقير ، ساطع نسيب رضوان : تفعيل مفهوم التسامح فلسفيًّا ، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة دمشق ، سورية ، المجلد (63) ، العدد (5) ، 2014م ، ص 141 .

أَبْسُطْ جَنَاحَيكَ اللذَيـ ـنِ هُمَا الطَّهَارَةُ وَالهِدَايَه
وَزِدِ الهِلالَ مِنَ الكَرَا مَةِ ، وَالصَّلِيبَ مِنَ الرِّعَايَه
فَهُمَا لِرَبِّكَ رَايَـةٌ وَالحَرْبُ لِلشَّيطَانِ رَايَه (1)

لقد جمع بين الهلال والصليب في بُوتَقَة واحدة ؛ فالهلال رَمْزٌ لِلدِّين الإِسْلامِيّ ، والصَّلِيب رَمْزٌ لِلدِّين المَسِيحِيّ ، وكلاهما دِينٌ سَمَاوِيّ ، يقوم على المَحَبَّة والتَّسَامُح والرحمة ، ويُحَارِب حِزْب الشَّيطَان .

ويسأل في قصيدته (عَلَى قَبْر نَابِلْيُون) عن قَضِيَّة صُلْب المَسِيح ، يقول :

أَيُّهَا الغَالُونَ فِي أَجْدَاثِهِمْ ابْحَثُوا فِي الأَرْضِ: هَلْ عِيسَى دَفِين؟(2)

عندما تقرأ شعر شوقي « لا تشك في أنه يصف ما يَشْعُرُ به ، وما تَشْعُرُ بِهِ أَنْتَ أيضًا ، وتقرأ أبيات شوقي فتجد فيها المعانيَ الغالية القِيمَة ، قد أُدِّيَتْ في اللفظ العذب الرشيق ، وليس فيها للبحث أثر ، ولا للتكلُّف مظهر » (3) .

يقول في قصيدته (الصَّلِيب الأَحْمَر) :

سِرْ يَا صَلِيبَ الرِّفْقِ فِي سَاحِ الوَغَى وَانْشُرْ عَلَيهَا رَحْمَةً وَحَنَانَا
وَالمُسْ جِرَاحَاتِ البَرِيَّـةِ شَافِيًا مَا كُنْتَ إِلاَّ لِلمَسِيحِ بَنَانَـا (4)

إِنَّ الصليب – كما يرى شوقي – يُدَاوِي الجِرَاح ، ويَشْفِي المَرْضَى ، ويُزِيلُ الآلام .

ويَدُومُ المُلْك إِذَا اسْتَنَدَ إلى أُصُول الحضارة ومبادئها الإنسانيَّة التي تَصْلُحُ بها الحياة ، « وهذا المعيار هو الذي سَمَا بشعر شوقي وفَتَح عليه أبواب القول ... وأنت تقرأ شوقي في الفراعنة أو اليونان أو في الرّومَان أو المسيحية أو

---

(1) أحمد شوقي : الشوقيات , 291/1 .
(2) المصدر السابق , 255/1 .
(3) طه حسين : حافظ وشوقي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1933م ، ص 108 .
(4) أحمد شوقي : الشوقيات , 278/1 .

الإسلام ؛ فترى الرَّجُلَ شاخصًا إلى حضارات هؤلاء الأقوام يُجْمِلُ لك جوهرها في البيت أو البيتين ، ويفصلُها لك تفصيلاً في الجَمّ الغفير من القول ، وهو – في إجماله وتفصيله – نافذ البصر إلى مكان المدح ووُجُوه المَآخِذ في الحضارات » [1] .

يقول في قصيدته (مَرْحَبًا بِالهِلال) ، التي قِيلَت في رأس سنة 1326 الهجرية :

عِيدُ المَسِيحِ وَعِيدُ أَحْمَدَ أَقْبَلا يَتَبَارَيَانِ وَضَاءَةً وَجَمَالا

مِيلادُ إِحْسَانٍ ، وَهِجْرَةُ سُؤْدُدٍ قَدْ غَيَّرَا وَجْهَ البَسِيطَةِ حَالا [2]

وحينما قُتِلَ الوزير المَسِيحِيّ بُطْرُس غَالِي بَاشَا في مصر برصاصة من يد إبراهيم الورداني سنة 1910م ، هَاجَتِ النُّفُوسُ ، واستاءتِ الأَقْبَاطُ ؛ ورَجَّحُوا كِفَّةَ أن الاغتيال نتيجة التعصُّب الإسلاميّ ضِدّ المَسِيحِيينَ ؛ فقال شوقي قصيدته (مَصْرَع بُطْرُس غَالِي بَاشَا) ؛ لِيُؤَلِّفَ بين قُلُوبِ المُسْلِمِينَ والمسيحيين بعد هذه الفِتْنَة الطَّائِفِيَّة ، ويُعْلِنُ إِنْكَارَه لهذا الاعتداء الغاشم ، الذي تَرْفُضُه كُلّ الأديان السَّمَاوِيَّة ، ويؤكد كونه حَادِثًا سِيَاسِيًّا ، ينبغي ألا يُؤَثِّر في قُوَّة الروابط بين المُسْلِمِينَ والأَقْبَاط ، يقول :

أَلَمْ تَكُ مِصْرٌ مَهْدَنَا ثُمَّ لَحْدَنَا وَبَينَهُمَا كَانَتْ لِكُلٍّ مَغَانِيَا

أَلَم نَكُ مِنْ قَبْلِ المَسِيحِ ابْنِ مَرِيَم وَمُوسَى وَطَهَ نَعْبُدُ النِّيلَ جَارِيَا

فَهَلاَّ تَسَاقَينَا عَلَى حُبِّهِ الهَوَى وَهَلاَّ فَدَينَاهُ ضِفَافًا وَوَادِيَا؟ [3]

يُؤَكِّد ضرورة استمرار الوَحْدَة السِّيَاسِيَّة بين مُسْلِمِي مصر وأقباطها ؛ فَإِنَّ المصريين القدماء عَبَدُوا النِّيل قبل أن يَعْرِفُوا المسيحيَّة والإسلام والأديان قاطبةً ، فضلاً عن كونهم مُتَجَاوِرِينَ في بُقْعَة مَكَانِيَّة واحدة ، ولا بُدَّ مِنْ أَنْ يَحْظَى المَسِيحِيُونَ فيها بالجِوَار الكَرِيم ، يقول في قصيدته (بُطْرُس بَاشَا غَالِي) :

---

(1) حلمي علي مرزوق : شوقي وقضايا العصر والحضارة , ص 153 – 154 .

(2) أحمد شوقي : الشوقيات , 186/1 .

(3) أحمد شوقي : الشوقيات , 55/4 .

أَعَهِدْتَنَا وَالقِبْطَ إلاَّ أُمَّـةٌ لِلأَرضِ وَاحِدَةٌ تَرُومُ مَرَامَا

نُعْلِي تَعَالِيمَ المَسِيحِ لأَجْلِهِمْ وَيُوَقِّرُونَ لأَجْلِنَا الإِسْلامَا

هَذِي قُبُورُكُمُ ، وَتِلْكَ قُبُورُنَا مُتَجَاوِرِينَ جَمَاجِمًا وَعِظَامَا

فَبِحُرْمَةِ المَوتَى ، وَوَاجِبِ حَقِّهِمْ عِيشُوا كَمَا يَقْضِي الجِوَارُ كِرَامَا (1)

يظهر حرص شوقي على التَّأَدُّب مع الأديان ؛ فإنَّ للمسيحيين مِثْل مَا لنا مِنَ الحُقُوق والوَاجِبَات ، ولأننا نعيش في بَلْدَةٍ واحدة ؛ فلا بُدَّ من الالتزام بالعيش الكريم في سَلامٍ ووَحْدَة ورِبَاطٍ إلى يوم القيامة .

خَامِسًا : هُوِيَّة قَومِيَّة (2) :

يُفِيدُ مفهوم الهُوِيَّة القَومِيَّة « مجموعة الصفات ، أو السمات الثقافيَّة العامَّة التي تُمَثِّل الحدّ الأَدْنَى المُشْتَرَك بين جميع الذين ينتمون إليها ، التي تجعلهم يُعْرَفُون ويتميزون بصفاتهم تلك مِمَّن سواهم مِنْ أفراد الأُمَم الأُخْرَى » (3) .

وقد اهْتَمَّ شَوقِي بالهُوِيَّة المصريَّة الفكريَّة , والثقافيَّة , تاريخًا , وحاضرًا , ولم ينشغل عن دوره في التعبير عن انتمائه القوميّ , لقد أحبَّ مِصْر بِقَدْرِ مَا عَرَفَ قِيمَتَهَا التاريخيَّة الحضاريَّة , ولقد عَبَّرَ عن ذلك في ديوانه , بعاطفة صادقة , في القصائد التي قالها في المنفى وبعده .

لقد انتمى انتماءً عميقًا إلى بلده , لكنه انتماء شاعرٍ مُفَكِّر , وليس انتماءً سياسيًّا ضَيِّقًا ؛ فهو لم ينضم لأيّ حزب سياسيّ , على الرغم من الانتقادات التي

---

(1) المصدر السابق , 145/3 .

(2) انظر : مريم جبر فريحات : مفهوم القومية عند أحمد شوقي ، حوليات آداب عين شمس ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، جمهورية مصر العربية ، المجلد 38 ، إبريل – يونيو 2010م ، ص 215 – 235 .

(3) أحمد بن نعمان : الهوية الوطنية ، دار الأمة ، الجزائر ، 1996م ، ص 23 .

وُجِّهَتْ إليه بسبب ذلك ؛ لرغبته ألا يكون تابعًا لأهواء بعض الأشخاص ؛ فيضطر إلى مخالفة ضميره وواجبه [1] .

وموقع مصر الجغرافيّ الفريد جعلها محطّ إعجاب ومطامع العُهُود القديمة , ولم تكن منغلقة على نفسها إلا في فترات ليست طويلة , بل كانت مجمع لمختلف الآداب والفنون , وظهر ذلك – بصورة واضحة – في مدينة الإسكندرية , التي تعمَّق فيها اتصال الحضارتين : اليونانيَّة والرومانيَّة بالحضارة المِصْرِيَّة .

ولقد عَرَف شوقي ذلك , وأكبر تلك المَيزَّة المِصْرِيَّة , بوصفها بُؤْرَةً ثقافيَّة عالميَّة ؛ فهو لم يَتَعَصَّب لإسلاميته , على حساب قبطيته , ولا على حساب فرعونيته , وأيضًا لم يَتَعَصَّب لقوميته ووطنيته , على حساب رؤيته الإنسانيَّة , تلك الرؤية التي تليق بشاعر مِصْر , ولسانها ؛ فما كانت مصر نفسها إلا بذلك الاتصال الدائم والمُثْمِر بين حضارات العالم , منذ عهد الفراعنة .

وقد استرعت الأقطار العربية اهتمام شوقي ؛ فسَجَّلَ بقلمه ما قَاسَاهُ أهل سُوريَا من مُعَانَاة في قصيدته (نَكْبَة دِمَشْق) ، التي قِيلَتْ في حفلة أُقِيمَتْ لإعانة منكوبي سُورِيًّا سنة 1926م ، وقد رَصَدَ فيها ثورة أهل دمشق ضدَّ احتلالِ فرنسا لبلدهم ، ودعا إلى إِغَاثَة سُورِيًّا ، يقول :

سَلامٌ مِنْ صَبَا بَرَدَى أَرَقُّ ... وَدَمْعٌ لا يُكَفْكَفُ يَا دِمَشقُ
وَقيلَ : مَعَالِمُ التَّارِيخِ دُكَّتْ ... وَقِيلَ : أَصَابَهَا تَلَفٌ وَحَرَقُ
أَلَسْتِ – دِمَشْقُ – لِلإِسْلامِ ظِئْرًا ... وَمُرضِعَةُ الأُبُوَّةِ لا تُعَقُّ ؟
بَنِي سُورِيَّةَ ، اطَّرِحُوا الأَمَانِي ... وَأَلْقُوا عَنْكُمُ الأَحْلامَ ، أَلْقُوا
فَمِنْ خِدَعِ السِّيَاسَةِ أَنْ تُغَرُّوا ... بِأَلْقَابِ الإِمَارَةِ وَهِيَ رِقُّ
نَصَحْتُ وَنَحْنُ مُخْتَلِفُونَ دَارًا ... وَلَكِنْ كُلُّنَا فِي الهَمِّ شَرْقُ
وَيَجْمَعُنَا إِذَا اخْتَلَفَتْ بِلادٌ ... بَيَانٌ غَيرُ مُخْتَلِفٍ وَنُطْقُ

---

(1) انظر : أحمد عبد الوهاب أبو العز : اثنا عشر عامًا في صحبة أمير الشعراء أحمد شوقي , مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة , 2012م , ص 62 .

جَزَاكُمُ ذُو الجَلالِ بَنِي دِمَشْقٍ وَعِزُّ الشَّرْقِ أَوَّلُهُ دِمَشْقُ [1]

ويقول في قصيدته (نَكْبَة بَيرُوت) ، التي كتبها بعد ضَرْب الأُسْطُول الإيطاليّ لها ، مُعْلِنًا حُزْنَهُ الشديد لِمُصَابِهَا ، الذي أدمى القلوب :

بَيرُوتُ ، مَاتَ الأُسْدُ حَتْفَ أُنُوفِهِمْ لَمْ يُشْهِرُوا سَيفًا ، وَلَمْ يَحْمُوكِ

بَيرُوتُ ، يَا رَاحَ النَّزِيلِ ، وَأُنْسَهُ يَمْضِي الزَّمَانُ عَلَيَّ لا أَسْلُوكِ [2]

يقول في قصيدته (دِمَشْق) :

قُمْ نَاجِ جِلَّقَ ، وَانْشُدْ رَسْمَ مَنْ بَانُوا مَشَتْ عَلَى الرَّسْمِ أَحْدَاثٌ وَأَزْمَانُ

لَولا دِمَشْقُ لَمَا كَانَتْ طُلَيطِلَةٌ وَلا زَهَتْ بِبَنِي العَبَّاسِ بَغْدَانُ

آمَنْتُ بِاللهِ ، وَاسْتَثْنَيتُ جَنَّتَهُ دِمَشقُ رَوحٌ ، وَجَنَّاتٌ ، وَرَيحَانُ [3]

يتحدث عن أمجاد دمشق ، وجمال طبيعتها ، وكثرة الخيرات في أراضيها .

ويؤكد في ختام القصيدة حرصه على الوَحْدَة بين السوريينَ ، وطَرْح الاختلاف والفُرْقَة ؛ فَإِنَّ البلاد الشرقيَّة يجمعها رَحِم اللغة العربيَّة الفُصْحَى ، وإذا اشتكى منها بَلَدٌ أَنَّ لِجُرْحِهِ بَلَدُهُ الشَّقِيق ، يقول :

وَنَحْنُ فِي الشَّرْقِ وَالفُصْحَى بَنُو رَحِمٍ وَنَحْنُ فِي الجُرْحِ وَالآلامِ إِخْوَانُ[4]

ويقول في قصيدته (ذكرى اسْتِقْلال سُورِيَّا وذِكْرَى شُهَدَائِهَا) ، وأوَّلهم يُوسُف العَظَمَة :

بَنِي البَلَدِ الشَّقِيقِ ، عَزَاءَ جَارٍ أَهَابَ بِدَمْعِهِ شَجَنٌ فَسَالا

قَضَى بِالأَمْسِ لِلأَبْطَالِ حَقًّا وَأَضْحَى اليَومَ بِالشُّهَدَاءِ غَالى

يُعَظِّمُ كُلَّ جُهْدٍ عَبْقَرِيٍّ أَكَانَ السِّلْمَ أَمْ كَانَ القِتَالا

---

(1) أحمد شوقي : الشوقيات , 2/ 74- 77 .

(2) المصدر السابق , 1/ 162 .

(3) المصدر نفسه ، 2/ 100 – 101 .

(4) أحمد شوقي : الشوقيات ، 2/ 103 .

تَغَيَّبَ عَظَمَةُ العَظَمَاتِ فِيهِ وَأَوَّلُ سَيِّدٍ لَقِيَ النِّبَالا [1]

ويقول في قصيدته (لُبْنَان) ، واصفًا جمال لُبْنَان :

لُبْنَانُ وَالخُلْدُ ، اخْتِرَاعُ اللهِ لَمْ يُوسَمْ بِأَزْيَنَ مِنْهُمَا مَلَكُوتُهُ

هُوَ ذِرْوَةٌ فِي الحُسْنِ غَيرُ مَرُومَةٍ وَذَرَا البَرَاعَةِ وَالحِجَا بَيرُوتُهُ [2]

ويقول في قصيدته (الأَنْدَلُس الجَدِيدَة) ، ويقصد مدينة مقدونية :

بِالأَمْسِ أَفْرِيقَا تَوَلَّتْ ، وَانْقَضَى مُلْكٌ عَلَى جِيدِ الخِضَمِّ جِسَامُ

نَظَمَ الهِلالُ بِهِ مَمَالِكَ أَرْبَعًا أَصْبَحْنَ لَيسَ لِعَقْدِهِنَّ نِظَامُ

وَاليَومَ حُكْمُ اللهِ فِي مَقْدُونِيَا لا نَقْضَ فِيهِ لَنَا وَلا إِبْرَامُ [3]

عندما احتلت إيطاليا ليبيا ، واستولت فرنسا على تونس والجزائر والمغرب ، مَلأت الحَسْرَةُ قلب شوقي ، وتَذَكَّرَ الفِرْدَوس المَفْقُود في الأندلس ، ونَزَفَتْ دُمُوعُهُ حُزْنًا على التَّرَدِّي الذي أصاب البلاد العربيَّة ، وقد رَثَى البطل الليبي عُمَر المُخْتَار (ت1931م) [4] .

سَادِسًا : هُوِيَّة عَالَمِيَّة :

اهْتَمَّ شوقي بالأبطال النُّبَلاء , أيًّا كانت هُوِيَّتهم , ومَجَّدَ الفِكْر السَّلِيم أينما وَجَدَهُ ، « ولم يكن شَاعِرًا لمصر وحدها ؛ فهو شاعر يَنْبِضُ قَلْبُهُ الكَبِير بِحُبِّ الإنسانيَّة ، أينما وُجِدَتْ ، على أي صورة تكون ؛ وهو لذلك لا تراه يُفَرِّقُ بين الأوطان ؛ فهو شاعر مِصْر كما هو شاعر العرب ، وشاعر الشرق ، وشاعر المسلمين ، وكُلّ الأديان » [5] .

---

(1) المصدر السابق ، 2/ 182 - 183 .

(2) المصدر نفسه ، 2/ 152 .

(3) المصدر نفسه ، 1/ 233 .

(4) انظر : أحمد شوقي : الشوقيات ، 3/ 17 – 19 .

(5) أحمد عبد المجيد : أحمد شوقي الشاعر الإنسان ، ص 21 - 22 .

ومِنْ ثَمَّ احتفل بِرُمُوزِ الفِكْرِ اليونانيّ القديم ، كسقراط [1] ، وأرسطو ؛ لذا هَنَّأَ أحمد لطفي السيد لأنه تَرْجَمَ كتاب (الأخلاق) لأرسطو , يقول في قصيدته (أرسطاطاليس وترجمانه) :

عَلِمْتَ بِالقَلَمِ الحَكِيمِ وَهَدَيتَ بِالنَّجْمِ الكَرِيمِ
وَأَتَيتَ مِنْ مِحْرَابِهِ بِأَرِسْطَاطَالِيسَ العَظِيمِ
شَيخ ابْنَ رُشْدٍ ، وَابْنَ سِيـ نَا ، وَابْنَ بَرْقِينَ الحَكِيمِ
مَنْ كَانَ فِي هَدْيِ المَسِيـ حِ ، وَكَانَ فِي رُشْدِ الكَلِيمِ [2]

ويقول في قصيدته (الهمزية النبوية) :

دَاءُ الجَمَاعَةِ مِنْ أَرِسْطَالِيسَ لَمْ يُوصَفْ لَهُ حَتَّى أَتَيتَ دَوَاءُ [3]

إنه يُجِلُّ تُرَاث اليونان ويُشِيدُ به , كما يُجِلُّ تُرَاث أجداده الفراعنة , وهو موقف شبيه بموقفه في مدح مُحَمَّد وعيسى (عليهما السلام) بالأسلوب نفسه ، يقول عن حضارة الإغريق في القصيدة نفسها :

مَشَّاءَ هَذَا العَصْرِ ؛ قِفْ حَدِّثْ عَنِ العُصُرِ القَدِيمِ
مَثِّلْ لَنَا اليُونَانَ بَيـ نَ العِلْمِ وَالخُلُقِ القَوِيمِ
أَخْلاقُهَا نُورَ السَّبِيـ لِ وَعِلْمُهَا نُورَ الأَدِيمِ
وَشَبَابُهَا يَتَعَلَّمُو نَ عَلَى الفَرَاقِدِ وَالنُّجُومِ
لَمَسُوا الحَقِيقَةَ فِي الفُنُو نِ ، وَأَدْرَكُوهَا فِي العُلُومِ [4]

---

(1) يقول شوقي في قصيدته (الهمزية النبوية) :

بِكَ يَا ابْنَ عَبْدِ اللهِ قَامَتْ سَمْحَةٌ بِـالحَقِّ مِنْ مِلَلِ الهُدَى غَرَّاءُ
بُنِيَتْ عَلَى التَّوحِيدِ ، وَهِيَ حَقِيقَةٌ نَادَى بِـهَا سُقرَاطُ وَالفُدَمَاءُ

أحمد شوقي : الشوقيات , 1/ 38 .

(2) المصدر السابق , 1/ 218 .

(3) المصدر نفسه , 1/ 38 .

(4) أحمد شوقي : الشوقيات , 1/ 219 .

فلا ضير لدى شوقي أن يكون الإغريقيّ أستاذًا لعلماء العرب ومِصْر ؛ لأنه شاعر حضاريّ , لا بَلَد للعِلْم – لديه – ولا دِين ، أَلَيسَتْ هذه الرُّوح ركيزة كُلّ نهضة , وضِدّها ركيزة كل انتكاسة ؟ وذلك ما نجده في جُلِّ أشعاره , يقول في قصيدته (العِلْم ، والتَّعْلِيم ، ووَاجِب المُعَلِّم) :

أَرْسَلْتَ بِالتَّوْرَاةِ مُوسَى مُرْشِدًا وَابْنَ البَتُولِ فَعَلَّمَ الإِنْجِيلا
وَفَجَرْتَ يَنْبُوعَ البَيَانِ مُحَمَّدًا فَسَقَى الحَدِيثَ ، وَنَاوَلَ التَّنْزِيلا
عَلَّمْتَ يُونَانًا وَمِصْرَ ؛ فَزَالَتَا عَنْ كُلِّ شَمْسٍ مَا تُرِيدُ أُفُولا
الجَهْلُ لا تَحْيَا عَلَيهِ جَمَاعَةٌ كَيفَ الحَيَاةَ عَلَى يَدَي عِزْرِيلا ؟ (1)

إنه شاعر الحضارة بلا منازع ، وعلى ذلك نَفهم موقفه من باريس التي أحبها كثيرًا , يقول في قصيدته (بَارِيس) :

وَلَقَدْ أَقُولُ وَأَدْمُعِي مُنْهَلَّةٌ : بَارِيزُ ، لَمْ يَعْرِفْكِ مَنْ يَغْزُوكِ
زَعَمُوكِ دَارَ خَلاعَةٍ ، وَمَجَانَةٍ وَدَعَارَةٍ ، يَا إِفْكِ مَا زَعَمُوكِ !
إِنْ كُنْتِ لِلشَّهَوَاتِ رِيًّا ؛ فَالعُلا شَهَوَاتُهُنَّ مُرَوَّيَاتٌ فِيكِ
تَلِدِينَ أَعْلامَ البَيَانِ ، كَأَنَّهُمْ أَصْحَابُ تِيجَانٍ ، مُلُوكُ أَرِيكِ
فَاضَتْ عَلَى الأَجْيَالِ حِكْمَةُ شِعْرِهِمْ وَتَفَجَّرَتْ كَالكَوثَرِ المَعْرُوكِ
وَالعِلْمُ فِي شَرْقِ البِلادِ وَغَرْبِهَا مَا حَجَّ طَالِبُهُ سِوَى نَادِيكِ (2)

تلك هي باريس عند شـــوقي ، قد جمعت كل ألوان الجمال والجلال ؛ فتاريخها هو تاريخ البشريَّة ، والعالَمُ يَدِينُ لها بالحضـارة ، وقد أَخَذَ عنها مَبَادِئَ الحَقّ ، ويعني بذلك الثورة الفرنســـيَّة ومبادئها المَعْرُوفَة في الحُرّيَّة والإخاء والمسـاواة ، وهي المبادئ الإنسـانيَّة التي قامت عليها حضـارات الأُمَم والشُّـعُوب إلى يوم الناس هذا .

---

(1) المصدر السابق , 1/ 181- 182 .

(2) أحمد شوقي : الشوقيات , 2/ 82 - 83 .

لقد أرسله الخِدِيو توفيق إلى فرنسا في شبابه ؛ لِيَدْرُسَ القَانُون , وأتاحت له (مدينةُ النُّور) – كما يُسَمِّيهَا – نافذةً مُغَايِرة , يُطِلُّ بها على الآداب الأُورُبِّيَّة , الأمر الذي جعله يُكَبِّرُ تلك المدينة , إنَّ فرنسا شوقي ليست فرنسا المُتَع غير المحدودة , والركض وراء (الموضة) , لقد مَثَّلَتْ فِي وِجْدَانِه منارةً للعِلْم , والآداب الراقية ؛ لذلك أكبرها كما أكبر حضارة أجداده المصريين , وحضارة اليونان من قبل .

ثُمَّ إِنَّهُ فِي عُنْفِه بِفَرَنْسا وضربها دِمَشْق بالمدافع لإخماد ثورتها ، هجاها دفاعًا عن مبادئ الثورة الفِرِنْسِـيَّة التي أحبها وأكبرها ، يقول في قصـيدته (نَكْبَة دِمَشْق) :

رَمَاكِ بِطَيشِهِ ، وَرَمَى فَرَنْسَا أَخُو حَرْبٍ ، بِهِ صَلَفٌ ، وَحُمْقُ (1)

المعنى : إِنَّ الأسطول الفرنسي دَكَّ دِمَشْق ؛ مِنْ جَرَّاء ثَورَتِهَا عَلَى الاحتلال الفرنسيّ ؛ وهذا تَنَاقُض مع مبادئ الثورة الفرنسيَّة ؛ فكأنه رَمَى فرنسا نفسها . ثُمَّ يَقُول فِي القَصِيدة نَفْسها :

دَمُ الثُّوَّارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا وَتَعْلَمُ أَنَّـهُ نُورٌ وَحَقُّ
جَرى فِي أَرْضِهَا ، فِيهِ حَيَاةٌ كَمُنْهَلِّ السَّمَاءِ ، وَفِيهِ رِزْقُ
بِلادٌ مَاتَ فِتْيَتُهَا لِتَحْيَا وَزَالُوا دُونَ قَومِهِمُ لِيَبْقُوا
وَحُرِّرَتِ الشُّعُوبُ عَلَى قَنَاهَا فَكَيفَ عَلَى قَنَاهَا تُسْتَرَقُّ ؟ (2)

ولكن شـوقي في غير هذه السـياق يُكَابِرُ بِفَرَنْسَـا أَيَّمَا مُكَابَرَة ، حين جاء طياران (فدرين ويونيه) من باريس إلى مصـــر بطائرتهما عام 1914م ، وكان الطَّيَرَانُ يَومَذَاكَ أمرًا مُسْـتَحْدَثًا يَدُلُّ على الرُّقِيّ العِلْمِيّ ؛ فانتهزها فُرْصَـةً لِيَمْدَحَ بها فرنسا ، يقول في مطلع قصيدته (آيَة العَصْرِ فِي سَمَاءِ مِصْرَ) :

يَا فَرَنْسَا ، نِلْتِ أَسْبَابَ السَّمَاءْ وَتَمَلَّكْتِ مَقَالِيدَ الجِـوَاءْ

---

(1) المصدر السابق , 2/ 76 .

(2) أحمد شوقي : الشوقيات , 2/ 76 .

غُلِبَ النَّسْرُ عَلَى دولَتِهِ وَتَنَحَّى لَكِ عَنْ عَرْشِ الهَوَاءْ
وَأَتَتْكِ الرِّيحُ تَمْشِي أَمَةً لَكِ – يَا بَلْقِيسُ – مِنْ أَوفَى الإِمَاءْ
رُوِّضَتْ بَعْدَ جِمَاحٍ ، وَجَرَتْ طَوعَ سُلْطَانَينِ : عِلْمٍ ، وَذَكَاءْ (1)

وظَاهِرُ القَولِ المُكَابَرَة بِهَذَا الاخْتِرَاع الذي غَلَبَ النِّســـر الطَّائِر عَلَى دَولَةِ الفَضَاءِ التِي كَانَ يَنْفَرِدُ بِهَا ؛ فَزَادَ الفِرِنْسِيُّونَ أَنْ شَارَكُوه فِيهَا ، بَلْ رَفَعُوه عَنْهَا ، بِسُلْطَانَينِ : (عِلْم وذَكَاء) .

إلا أنني أستشعر أن شوقي من وراء هذا المعنى يريد بالنَّسر (نابليون) ، وقد وصفه بهذا الوصف عندما جاء مِصْر فاتحًا بحملته الفرنسيَّة ، يقول في قصيدته (كِبَار الحَوَادِث فِي وَادِي النِّيلِ) :

وَأَتَى النَّسْرُ يَنْهَبُ الأَرْضَ نَهْبًا حَولَهُ قَومُهُ ، النُّسُورُ ظِمَاءُ (2)

ووصفه بالوصف نفسه في قصيدته (تَحْلِيَة كِتَاب) ، التي قيلت بمناسبة تأليف كتاب (فتح مصر الحديث) لحافظ بك عوني ، يقول :

إِنَّ سِرْبًا زَحَفَ النَّسْرُ بِهِ قَطَعَ الأَرْضَ بِطَاحًا وَهِضَابَا (3)

وهنا نســتشـــعر إعجابه القَوِيّ بالرجل في الشــطر الثاني ، بذكر البِطَاح وتكثير الهضاب .

لقد آمَنَ شَـــوقِي بالبطولات التاريخية ، ورأى أن نَابِلْيُون لَو نَالَ ما يستحقه مِنْ مَكَانَة لَقَادَ السَّحَابَ ، يقول في القصيدة نفسها :

قَادَهُمْ لِلفَتْحِ فِي الأَرْضِ فَتًى لَو تَأَنَّى حَظَّهُ قَادَ السَّحَابَا (4)

ويقول في مطلع قصيدته (رومة) :

قِفْ بِرُومَا ، وَشَاهِدِ الأَمْرَ ، وَاشْهَدْ أَنَّ لِلمُلْكِ مَالِكًا سُبْحَانَه

---

(1) المصدر السابق , 2/ 3 .

(2) المصدر نفسه ، 33/1 .

(3) المصدر نفسه ، 21/2 .

(4) أحمد شوقي : الشوقيات ، 21/2 .

دَولَةٌ فِي الثَّرَى ، وَأَنْقَاضُ مُلْكٍ هَدَمَ الدَّهْرُ فِي العُلا بُنْيَانَه (1)

ومِثْلَمَا أكبر توت عنخ آمون , ورمسيس , هُوِيَّة فرعونيَّة , ومحمد (ﷺ) هُوِيَّة إسلاميَّة عربيَّة , والمسيح هُوِيَّة قبطيَّة , أَكْبَرَ أمر نابليون بونابرت هُوِيَّة عالميَّة , يقول في قصيدته (عَلَى قَبْر نَابليون) :

يَا عِصَامِيًّا حَوَى المَجْدَ سِوَى فَضْلَةٍ قَدْ قُسِّمَتْ فِي المُعْرِقِينْ
أُمُّكَ النَّفْسُ قَدِيمًا أَكْرَمَتْ وَأَبُوكَ الفَضْلُ خَيرُ المُنْجِبِينْ
تُرْجَحُ السِّلْمُ إِذَا حَرَّكْتَهُ كِفَّةً ، أَو تُرْجَحُ الحَرْبُ الزَّبُونْ
خُطَبٌ لا صَوتَ إِلاَّ دُونَهَا فِي صَدَاهَا الخَيلُ تَجْرِي وَالسِّنِينْ
مِنْ قَصِيرِ اللَّفْظِ ، فِي مَكْرِ النُّهَى وَطَوِيلِ الرُّمْحِ ، فِي كَيدِ الوَتِينْ
غَيرَ وَضَّاعٍ ، وَلا وَاشٍ ، وَلا مُنْكِرِ القَولِ ، وَلا لَغْو اليَمِينْ (2)

ويقول في قصيدته (كِبَار الحَوَادِث فِي وَادِي النِّيلِ) :

قَاهِرُ العَصْرِ وَالمَمَالِكِ ، نَابِلْـ يُونُ وَلَّتْ قُوَّادُهُ الكُبَرَاءُ
جَاءَ طَيشًا ، وَرَاحَ طَيشًا ، وَمِنْ قَبْـ لُ أَطَاشَتْ أُنَاسَهَا العَلْيَاءُ (3)

فهو لم يُنْكِر على نابليون عبقريته ، ولا قهره للممالك والأمراء ، وسَلَكَهُ في طُلاَّب المَعَالِي ، وكِبَار الفَاتِحِينَ ، وعَبْقَرِيَّة شَوقي – عندي – في (جَاءَ طَيشًا ، وَرَاحَ طَيشًا) فهذا ذَمٌّ بالطيش ، ولكنه – عند شوقي – طيش العظماء ، (وَمِنْ قَبْلُ أَطَاشَتْ أُنَاسَهَا العَلْيَاءُ) .

وعلى المنوال نفسه , يمدح شكسبير أديب إنجلترا البارع , يقول :

مَا أَنْجَبَتْ مِثْلَ (شِكسبيرَ) حَاضِرَةٌ وَلا نَمَتْ مِنْ كَرِيمِ الطَّيرِ غَنَّاءُ
نَالَتْ بِهِ وَحْدَهُ (إِنْكِلْتِرَا) شَرَفًا مَا لَمْ تَنَلْ بِالنُّجُومِ الكُثْرِ جَوزَاءُ
لَمْ تُكْشَفُ النَّفْسُ لَولاهُ ، وَلا بُلِيَتْ لَهَا سَرَائِرُ لا تُحْصَى وَأَهْوَاءُ (4)

---

(1) المصدر السابق , 1/ 251 .

(2) المصدر نفسه , 1/ 255 ، 258 .

(3) المصدر نفسه ، 33/1 .

(4) أحمد شوقي : الشوقيات , 2/ 7 .

وهو يشير في البيت الأخير إلى ما عرف عن شكسبير (Shakespeare) من تحليل نفسي للشخصيات التي يُبْدِعها في رواياته .

ويذكر (روما) و(أثينا) في قصيدته (تُوت عَنْخ آمُون) ؛ فيقول عن الحضارة الفرعونية :

مَشَتْ بِمَنَارِهِمْ فِي الأَرْضِ رُومَا وَمِنْ أَنْوَارِهِمْ قَبَسَتْ أَثِينَا (1)

ووصف نكبة اليابان بالزلزال في قصيدته (طُوكْيُو) ، التي يقول في مطلعها :

قِفْ بِطُوكيُو ، وَطُفْ عَلَى يُوكَاهَامَهْ وَسَلِ القَرْيَتَينِ كَيفَ القِيَامَهْ ؟ (2)

إنك كلما تأملت شعر شوقي وجدته يَعْتَزُّ بلغته العربيَّة ، وتاريخه القوميّ ، وإسلامه القويم ، ووطنه الشرقيّ ؛ إنه شاعر الهُوِيَّة المِصْرِيَّة التي تقوم على التَّعَدُّدِيَّة , وليس بغريب عليه أن يأتنس بكل عظيم , وجليل .

الخاتمة ونتائج البحث

وبعد ، فهذا بحث يرصد بعض ملامح الهُوِيَّة المِصْرِيَّة في شعر شوقي ، وقد خَلَصَ إلى عِدَّة نتائج لعل من أهمها ما يأتي :

1- إن مصطلح (الهُوِيَّة) يشمل عِدَّة قضايا تتجاذبها علوم إنسانية متنوعة ؛ فهو يتردَّدُ بين الفلسفة والاجتماع والسياسة والأدب ، والبحث فيه أمرٌ غير يسير .

والواقع أن الهُوِيَّة تعبير عن الحرية الذاتيَّة ، ومحاولة لتأكيد الذات ؛ فهي مجموعة الصفات ، أو السِّمَات الثقافيَّة العامة ، التي تُعْطِي الفرد أو الجماعة وحدتها ، واتجاهات انتمائها ، ومن شأن الهُوِيَّة أن تعطي صاحبها القدرة على النماء على الصعيد النفسيّ , والتمايُز على الصعيد الغيريّ .

---

(1) المصدر السابق , 1/ 267 .

(2) المصدر نفسه , 2/ 85 .

2- يُقْصَد بالهُوِيَّة المصريَّة الأُمُور المُشْتَرَكة بين المصريين من جهة , والأمور المختلفة عن غيرهم مِنَ الأُمَم من جهة أخرى , تلك الأمور التي تجعل لمصر خصوصية معرفيَّة , ثقافيَّة , وجوديَّة ، ومن أبرز مُقَوِّمَات هُوِيَّة الأُمَّة المِصْرِيَّة : الدِّين ، واللغة ، والتاريخ .

3- اللغة العربية أحد المؤشرات البارزة للهُوِيَّة ، التي تُسْهِمُ في تعزيزها ، والعلاقة بين اللغة والهُوِيَّة وثيقة جدًّا ومُتَشَابِكَة ؛ فاللغة حجر أساس الثقافة ، وهي – بدورها – تنصهر لِتُكَوِّن هُوِيَّتِنَا الوطنيَّة المِصْرِيَّة ؛ فهي هُوِيَّة اجتماعيَّة ، وسِمَة وطنية ، ووسيلة للإبداع الفكري .

وقد ساعدت اللغةُ العربية مصر على تَكْوِين هُويَّتها ، والتفتُّح على ثقافات العالَم السابقة عليها والمُعاصِرة لها ؛ لذا تسابَق أبناء الحضارات والأعراق الأخرى مِمَّنْ عاشوا في كَنَفِ الإمبراطورية الإسلاميَّة إلى إجادتها وحذقها .

4- اتَّسع مفهوم (العربيَّة) وثقافتها ؛ لكي تشمل ثقافة الإمبراطوريَّة الإسلاميَّة ، التي لم تقتَصِر على علوم اللغة والدِّين ، وإنما امتدَّتْ – من خلال اللغة – إلى الثقافة العلميَّة الإنسانيَّة بمفهومها الواسع ، وضَمَّتْ جميع العلوم التي تسعى للارتقاء بالبشريَّة ونفعها .

5- إن مصرَ خليطٌ من عناصر مختلفة وديانات متعددة ؛ وهي صاحبة تراث حضاريّ عريق ؛ وذلك لكثرة ما مَرَّ بها من حروب ، تركت فيها أثرًا بارزًا ، وجعلتها مزيجًا مِنْ عِدَّة حضارات ؛ فقد غَيَّرَتْ مصر لغتها وديانتها ثلاث مَرَّات عَبْر التاريخ المُدَوَّن .

ويَعْتَزُّ المصريون بانتماءاتهم المتعددة : الفرعونيَّة واليونانيَّة والمسيحيَّة والإسلاميَّة ، التي أَثَّرَتْ – بوضوح – في تكوين الشخصيَّة المصريَّة .

6- الموقع الجغرافيّ لمصر له عظيم الأثر ؛ فقد أعطاها خصائص جعلتها قَلْب الأُمَّة العَرَبِيَّة ، والعنصر المُؤَثِّر في إفريقيا ، وواسطة العالم الإسلاميّ ، وحَجَر الزاوية في العالم الإفريقيّ ؛ وذلك لأنها جَمَعَتْ بين أطراف مُتَعَدِّدَة غنيَّة ، وجوانب كثيرة خِصْبَة وثريَّة ، وأبعاد وآفاق واسعة جعلتها أُمَّةً وسطًا بكل معنى الكلمة ،

وسط في الموقع والدور الحضاريّ والتاريخيّ ؛ مِمَّا أثرى شخصيتها الإقليميَّة والتاريخيَّة ، وأبرز عَبْقَرِيَّة المكان فيها .

7- أثبت البحثُ أن الهُوِيَّة المِصْرِيَّة تركت أثرًا كبيرًا في شعر شوقي جعله شاعر الحضارة بلا منازع ؛ إذ استوعب شِعْرُهُ الحضارات المتعددة التي مَرَّ بها تاريخ مصر ، ونجح في إبراز معالم وخصائص الهُوِيَّة المِصْرِيَّة في كُلّ عصورها ؛ فكان خير مُمَثِّلٍ لها ، بوصفه شاعرًا قوميًّا , تجاوز في شعره حُدُود مصر , وصدحت ألحان قيثارته في كثير من البقاع وصفًا , وتمجيدًا , ورثاءً .

ومما لا نِزَاعَ فِيهِ أَنَّ شخصيَّة شوقي ومواهبه الشعرية تكاد تكون مُنْعَدِمَة النظير في تاريخ الأدب العربيّ ؛ فقد كتب شعرًا عن التاريخ الإسلاميّ وعظمة مصر القديمة ، وحضارة الفراعنة ، ولم يقتصر على ذلك بل تَطَرَّقَ إلى الحضارة اليونانيَّة والحضارة الفرنسيَّة ، وأسهم بشعره في مشكلات السياسة , والاجتماع ؛ فحَفِظَ بذلك الهُوِيَّة المصريَّة الثقافيَّة والحضاريَّة جميعًا .

8- جعل شوقي الحضارة الفرعونيَّة هي الأصل الذي نَبَتَتْ منه الشخصية المصريَّة ، وكان – بحقٍّ – شاعر الأخلاق التي تَقُوم على التسامُح .

9- الإسلام رُكْن عظيم الشأن في الهُوِيَّة المصريَّة عند شوقي ؛ وتقوم الهُوِيَّة الدينيَّة على الدين الإسلاميّ ، وهي عربيَّة في صميمها ، تَضُمُّ التراث العربيّ من الشعر وغيره , وعلى رأس ذلك اللغة العربية التي وَحَّدَتْ بين الممالك وحدةً ثقافيَّة , فضلاً عن وحدة العقيدة .

10- تقوم الهُوِيَّة السِيَاسِيَّة على الولاء العثمانيّ ، وهي تركيَّة في صميمها , , وهو في مدحهم لا يمدح جنسهم بِقَدْرِ ما يَحْمَدُ أفعالهم التي يُكَبِّرُهَا , ويزخر ديوانه بهذه العاطفة .

11- للتاريخ الفرعوني والقبطي ظهوره غير المنكور في شعر شوقي ، فضلاً عن ملامح الوحدة الوطنية التي ظهرت – بجلاء – بين المسلمين والأقباط .

12- للغة العربيَّة أَهَمِيَّة كُبْرَى في المحافظة على الهُوِيَّة وتوطين المعرفة ، والواقع أن موضوع الهُوِيَّة المصريَّة يحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة ؛ لأنه جدير بأن يَحْظَى بعناية الأُمَّة العربيَّة بِرُمَّتِهَا .

المصادر والمراجع

أولا : المصادر :

*** ابن جِنِّيّ – أبو الفتح عُثْمَان (ت392هـ) :**

1- الخَصَائِصُ ، تحقيق مُحَمَّد عَلِي النَّجَّار ، دار الكُتُب المِصْرِيَّة ، القاهرة ، 1371هـ - 1952م .

*** ابن رُشْد الحفيد – أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي (ت595هـ) :**

2- تفسير ما بعد الطبيعة ، تحقيق موريس بويج ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1967م .

*** أحمد شوقي :**

3- الشوقيات المجهولة ؛ آثار شوقي التي لَمْ يُسْبَقْ كَشْفَها أو نَشْرَها ، جمع وترتيب محمد صبري ، دار المسيرة ، بيروت ، 1979م .

4- الشوقيات ، دار العودة ، بيروت ، 1988م .

5- دول العرب وعظماء الإسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1970م .

*** الشريف الجُرْجَانِيّ – علي بن محمد الحسينيّ (816هـ) :**

6- كتاب التعريفات ؛ مُعْجَم فلسفيّ مَنْطِقِيّ صُوفِيّ فِقْهِيّ لُغَوِيّ نَحْوِيّ ، تحقيق عبد المنعم الحفني ، دار الرشاد ، القاهرة ، 1991م .

*** أَبُو نَصْر الفَارَابِي – مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن طرخان (ت339هـ) :**

7- كتاب الحروف ، حَقَّقَهُ وقَدَّمَ لَهُ وعَلَّقَ عليه مُحْسِن مَهْدِي ، السلسلة الأولى ؛ الفكر العربي والإسلامي (46) ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1990م .

ثانيًا : المراجع العربية :

*** أحمد بن نعمان :**

8- الهوية الوطنية ، دار الأمة ، الجزائر ، 1996م .

*** أحمد خليفة :**

9- الهُوِيَّة والتراث ، ندوة شارك فيها عددٌ من الباحثين ، دار الكلمة ، بيروت ، ط1 ، 1984م .

*** أحمد درويش :**

10- إنقاذ اللغة إنقاذ الهوية ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2018م .

*** أحمد عبد المجيد :**

11- أحمد شوقي الشاعر الإنسان , دار المعارف ، القاهرة ، د . ت .

*** أحمد عبد المعطى حجازي :**

12- قصيدة لا ؛ قراءة في شعر التمرُّد والخروج , مركز الأهرام للترجمة والنشر , القاهرة ، ط1 ، 1989م .

*** أحمد عبد الوهاب أبو العز :**

13- اثنا عشر عامًا في صحبة أمير الشعراء أحمد شوقي , مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة , 2012م .

*** انْطُون زكري :**

14- مفتاح اللغة المصرية القديمة وأنواع خُطُوطها وأهم إشاراتها ومبادئ اللغتين القبطية والعبرية ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط ، 1417هـ - 1997م .

*** جاك تاجر :**

15- أقباط ومسلمون ؛ منذ الفتح العربي إلى عام 1922م ، مُؤَسَّسَة هِنْدَاوِيّ للتعليم والثقافة ، القاهرة , ط1 ، 2012م .

*** جامعة الدول العربية :**

16- الإستراتيجية العربية للتنمية الاجتماعية الشاملة ؛ الدراسة الأساسية ، الإدارة العامة للشؤون الاجتماعية ، جامعة الدول العربية ، القاهرة ،1985م.

*** جمال حمدان :**

17- شخصية مصر وتعدُّد الأبعاد والجوانب ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، 1994م .

*** جميل صليبا :**

18-المعجم الفلسفي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1972م.

*** حسن حفني حسين :**

19- الهُوِيَّة , المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة , ط1 ، 2012م .

*** حلمي علي مرزوق :**
20- شوقي وقضايا العصر والحضارة , دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ط2 , 1981م .
21- تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في الربع الأول من القرن العشرين ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت , 1981م .
*** زبيدة محمد عطا :**
22- قبطيّ في عصر مسيحيّ , مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة , 2013م .
*** صلاح فضل :**
23- فصول عن شوقي أمير الشعراء , الدار المصرية اللبنانية , القاهرة ، ط1، 2008م .
*** ضياء الدين زاهر :**
24- اللغة ومستقبل الهوية ؛ التعليم نموذجًا ، وحدة الدراسات المستقبلية ، مكتبة الإسكندرية ، 2017م .
*** طه حسين :**
25- حافظ وشوقي ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1933م .
*** عباس محمود العقاد :**
26- شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1963م .
*** عبد الباقي الهرماسي وآخرون :**
27- الدين في المجتمع العربي ، الجمعية العربية لعلم الاجتماع ، بحوث ندوة الدين في المجتمع العربي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط2 ، 2000م .
*** عبد السلام المسدي وآخرون :**
28- اللسانيات في خدمة اللغة العربية ، المطبعة العصرية ، تونس ، 1983م .
*** علي فهمي خشيم وآخرون :**
29- الوحدة والتنوع في اللهجات العروبية القديمة ، مركز الحضارة العربية ، القاهرة ، مجمع اللغة العربية ، طرابلس ، ليبيا ، ط1 ، 2005م .

* **فؤاد محمد شبل :**
30- دور مصر في تكوين الحضارة ، المكتبة الثقافية (270) ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، 1971م .
* **لجنة التأليف القبطي :**
31- تاريخ الأُمَّة القِبْطِيَّة ؛ الحلقة الثانية ؛ خلاصة تاريخ المسيحية في مصر ، وزارة المعارف العمومية ، القاهرة ، ط3 ، 1925م .
* **محمد راتب الحلاق :**
32- نحن والآخر ؛ دراسة في بعض الثنائيات المتداولة في الفكر العربي الحديث والمعاصر ؛ الشرق/ الغرب - التراث/ الهُوِيَّة - الممكن / الواقع ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 1997م .
* **محمد عابد الجابري وآخرون :**
33- العرب والعولمة ، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية ، تحرير أسامة أمين الخولي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، ديسمبر 1998م .
* **محمد عفيفي :**
34- الدِّينُ وَالسِّيَاسَةُ فِي مِصْر المُعَاصِرَة ؛ القمص سرجيوس ، دار الشروق ، القاهرة ، ط1 ، 1421هـ - 2001م .
* **محمود إسماعيل :**
35- المِصْرِيُونَ وسُؤَال الهُوِيَّة ، رؤية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 2015م .
* **مصطفى صادق الرافعي :**
36- وحي القلم , راجعه واعتنى به درويش الجويدي ، المكتبة العصرية ، صَيدَا , بَيرُوت ، 2002م .
* **مصطفى الفقي :**
37- الأقباط في السياسة المصرية ؛ مكرم عبيد ودوره في الحركة الوطنية ، دار الشروق ، القاهرة ، ط2 ، 1988م .
* **ميلاد حنا :**
38- الأعمدة السبعة للشخصية المصرية , مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب , القاهرة ، 2013م .

* **نوال محمد عطية :**
39- علم النفس اللغوي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1975م .
* **وليد منير :**
40- نص الهُوِيَّة ؛ قراءة في شعر محمود درويش , سلسلة كتابات نقدية (141) ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، القاهرة , ط1 ، 2003م .

ثالثًا : المراجع الأجنبية المترجمة :

* **إيجلتون ، تيري :**
41- فكرة الثقافة , ترجمة شوقي جلال , مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب , القاهرة ، 2012م .
* **بتري ، وليام فلندرز :**
42- الحياة الاجتماعية في مصر القديمة ، تَرْجَمَهُ وعَلَّق عَلَيهِ وقَدَّمَ لَهُ حسن محمد جوهر وعبد المنعم عبد الحليم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1975م .
* **جامبولسكي ، جيرالد ج :**
43- التسامح ؛ أعظم علاج على الإطلاق ، تقديم نبيل دونالد والش ، مكتبة جرير ، المملكة العربية السعودية ، طبعة خاصة أصدرتها : مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، 2007م .
* **سارتر ، جان بول :**
44- الوجودية مذهب إنساني , ترجمة عبد المنعم الحفني , الدار المصرية للنشر والتوزيع , القاهرة ، ط1 ، 1964م .
* **فال ، جان :**
45- طريق الفيلسوف , ترجمة أحمد حمدي محمود , سلسلة الألف كتاب (637) , مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، 1967م .
* **نوبلكور ، كريستيان ديروش :**
46- المرأة الفرعونية ، ترجمة فاطمة عبد الله محمود ، مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 2016م .

رابعًا : الدوريات :

* **صالح شقير ، ساطع نسيب رضوان :**

47- تفعيل مفهوم التسامح فلسفيًّا ، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة دمشق ، سورية ، المجلد (63) ، العدد (5) ، 2014م .

* **عبد الهادي محمد :**

48- الأخلاق في شعر أحمد شوقي ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة محمد خيضر ، بسكرة ، الجزائر ، العدد الخامس ، 2009م .

* **عرفان شهيد :**

49- شوقي ومصر الفرعونية ، مجلة فصول ؛ مجلة النقد الأدبي ، عدد خاص عن (شوقي وحافظ ، الجزء الثاني) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، المجلد الثالث ، العدد الثاني ، يناير – مارس 1983م .

* **عز الدين صحراوي :**

50- اللغة العربية في الجزائر ؛ التاريخ والهوية ، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة مُحَمَّد خيضر ، بسكرة ، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، جوان 2009م .

* **علي أسعد وطفة :**

51- إشكالية الهوية والانتماء في المجتمعات العربية المعاصرة ، مجلة المستقبل العربي ، العدد (282) ، 2002م .

* **محمد نافع العشيري :**

52- مفهوم اللغة ومفهوم الهوية ومظاهر التفاعل ، مجلة عالم الفكر ، المجلس الوطنيّ للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، مجلد (43) ، عدد (4) ، إبريل – يونيو 2015م .

* **محمد وردي :**

53- الهُوِيَّة والمنهجية بين الإبداع والتهافت ، مجلة دبي الثقافية ، دار الصدى للصحافة والنشر والتوزيع ، دبي ، ط1 ، أكتوبر 2014م .

* **مريم جبر فريحات :**

54- مفهوم القومية عند أحمد شوقي ، حوليات آداب عين شمس ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، جمهورية مصر العربية ، المجلد 38 ، إبريل – يونيو 2010م .

خامسًا : الرسائل الجامعية :

*** سعيدة بن بوزة :**

55– الهوية والاختلاف في الرواية النسوية في المغرب العربي ، رسالة دكتوراة ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جَامِعَة الحاج لخضر ، باتنة ، الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية ، 1429هـ – 2008م .

سَادِسًا : المَرَاجِع الأَجْنَبِيَّة :

(56)Bhugra, D. 2004. Migration, Distress and Cultural Identity. British Medical Bulletin.

(57)Chandler, Daniel. 2016. Dictionary of Media and Communication. Oxford University Press